
صراع الأخوين
كامل كيلاني

صِرَاعُ الأَخَويْنِ

صِرَاعُ الأَخَويْنِ

تأليف
كامل كيلاني



صِرَاعُ الأَخَوَيْنِ

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٤٦٥
تدمك: ٩ ١٢٨ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: ورود الصاوي.

المحتويات

الفصل الأول

مُعَلِّمُ الرِّمايَةِ

(١) فاتِحَةُ الْقِصَّةِ

كانَ فِي بِلادِ الْهِنْدِ، ويا ما أَعْجَبَ مَا كانَ فِي تِلْكَ الْبِلادِ! كانَ فِيهَا مَلِكٌ كَبِيرُ الْقَدْرِ وَالشَّانِ، عَظِيمُ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ، جَلَسَ عَلَى الْعَرْشِ مُنْذُ طُفُولَتِهِ، وَسَاسَ أُمُورَ بِلادِهِ فِي عَهْدَيْ صِباهُ وَكُهُولَتِهِ، وَامْتَدَّ حُكْمُهُ إِلَى زَمَنَيْ هَرَمِهِ وَشَيْخُوخَتِهِ.

وَقَدْ بَدَأَتِ الْقِصَّةُ حِيْنَ كَبِرَ الْمَلِكُ «بِهِشْما» — وَهَذَا هُوَ اسْمُهُ، كَما عَرَفْناهُ مِمَّا قَرَأْناهُ، مِنْ أَحادِيثِ الْقَصَّاصِينَ وَأَنْباءِ الرُّوَاةِ — فَقَدْ أَخْبَرَنا الأَثْباتُ مِنْهُمْ وَالثِّقاتُ، أَنَّ الْمَلِكَ «بِهِشْما» قَدْ تَبَدَّلَ — عَلَى مَرِّ السِّنِينَ وَكَرِّ الأَعْوَامِ — ضَعْفًا مِن قُوَّةٍ، وَعَجْزًا مِن فُتُوَّةٍ؛ وَقَوسَتْ ظَهْرَهُ الأَيَّامُ، حِيْنَ أَشْرَفَتْ حياتُهُ عَلَى الْخِتامِ. وَقَدْ أَعْجَزَتْهُ الشَّيْخُوخَةُ عَنِ الاضْطِلاعِ بِمَهامِّ الدَّوْلَةِ، وَتَدْبِيرِ سِياسَةِ الْمَمْلَكَةِ، وَالْعِنايَةِ بِشُئُونِ الشَّعْبِ.

(٢) أَبْناءُ الْعَمِّ

وَكانَ الْمَلِكُ «بِهِشْما» قَدْ خَلَّفَ — وَهُوَ فِي مُقْتَبَلِ شَبابِهِ وَلَدَيْنِ، سَمَّى أَكْبَرَهُما «دَرَسْتَراسا» وَسَمَّى الآخَرَ «بَنْدُو». وَكانَ أَوَّلُهُما — لِسُوءِ حَظِّهِ — أَكْمَه، أَعْنِي: أَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى؛ فَلَمْ يُمْكِنْهُ عَماهُ، أَنْ يُعاوِنَ أَباهُ. وَكانَ النَّاسُ يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ لَقَبَ: «الضَّرِيرِ» (الأَعْمَى)، كَما يُطْلِقُونَ عَلَى أَوْلادِهِ لَقَبَ: أَبْناءِ «الضَّرِيرِ» (أَوْلادِ الأَعْمَى). أَمَّا وَلَدُهُ الآخَرُ «بَنْدُو» فَلَمْ يَطُلْ عُمْرُهُ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَعْجَلَهُ حِمامُهُ (أَسْرَعَ إِلَيْهِ الْمَوْتُ)، وَخُتِمَتْ — فِي رِيْعانِ شَبابِهِ — أَيَّامُهُ وَكانَ فِي حَياتِهِ مِثالَ الإِقْدامِ والشَّجاعَةِ، وَالدُّرْبَةِ وَالْبَراعَةِ. فَأَحَبَّهُ أَصْدِقاؤُهُ، وَتَهَيَّبَهُ



أَعْداؤُهُ، وَحالَفَهُ النَّصْرُ فِي كُلِّ مَا شَهِدَهُ مِنَ الْمَعارِكِ، وَقَدْ صَرَعَهُ سَهْمٌ غادِرٌ فِي آخِرِ مَعْرَكَةٍ قَادَها، بَعْدَ أَنْ تَمَّتْ لَهُ الْغَلَبَةُ وَكُتِبَ لَهُ النَّصْرُ عَلَى أَعْداءِ بِلادِهِ. فَكانَ لِمَصْرَعِهِ دَوِيٌّ عَظِيمٌ، وَأَطْلَقَ عَلَيْهِ النَّاسُ — مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — لَقَبَ: «الشَّهِيدِ»؛ كَمَا أَطْلَقُوا عَلَى أَبْنَائِهِ لَقَبَ: «أَبْناءِ الشَّهِيدِ».

فَلَمَّا كَبِرَ أَبْناءُ «الضَّرِيرِ» وَأَبْناءُ «الشَّهِيدِ»، وَبَلَغُوا مَبْلَغَ الرِّجالِ، وَعُقِدَتْ عَلَيْهِمْ كِبارُ الآمالِ، كانَ جَدُّهُمْ «بِهِشْما» قَدْ بَلَغَ سِنَّ الشَّيْخُوخَةِ، وَابْيَضَّ شَعْرُهُ، وَوَهَنَتْ (ضَعُفَتْ) قُواهُ، وَارْتَعَشَتْ — مِن الْكِبَرِ — يَداهُ. فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا (مَفَرًّا) مِنَ التَّخَلِّي عَنْ أَعْباءِ الْمُلْكِ.

(٣) دُرْيُدْهانا

قُلْتُ لَكَ إِنَّ أَبْناءَ «الضَّرِيرِ» وَأَبْناءَ «الشَّهِيدِ» كانُوا حَفَدَةَ «بِهِشْما»، كَما قُلْتُ لَكَ إِنَّ أَوَّلَ هَذَيْنِ الْوَلَدَيْنِ عاشَ أَعْمَى، وَالثَّانِيَ ماتَ فِي رَيْعانِ شَبابِهِ. وَالآنَ أَقُولُ لَكَ: إِنَّ «دُرْيُدْهانا» كانَ كَبِيرَ أُسْرَةِ «الضَّرِيرِ» وَزَعِيمَها، وَإِنَّهُ كانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الْمُتَناقِضاتِ: كانَ يَجْمَعُ إِلَى كَيْدِ الضُّعَفاءِ وَحِقْدِ الْجُبَناءِ، فِطْنَةَ الأَذْكِياءِ، وَبَذْلَ الْكُرَماءِ، وَطُمُوحَ الأَقْوِياءِ.

(٤) أَرْجُونا

بَقِيَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ «يُدِشْتِ-هِيرا» كانَ كَبِيرَ أُسْرَةِ «الشَّهِيدِ» وَزَعِيمَ إِخْوَتِهِ الأَرْبَعَةِ، وَهُمْ عَلَى تَرْتِيبِ أَسْنانِهِمْ (عَلَى حَسَبِ أَعْمارِهِمْ): «بِهْما» وَ«أَرْجُونا» وَالتَّوْأَمانِ.

أَمَّا «أَرْجُونا» فَكانَ أَوْسَطَ إِخْوَتِهِ سِنًا، وَأَعْلاهُم قَدْرًا، وَأَوْفَرَهُم فَضْلًا، وَأَمْضَاهُم عَزْمًا، وَأَعْظَمَهُم جُرْأَةً، وَأَرْجَحَهُم عَقْلًا.

وَأَمَّا أَخَوَاهُ الأَصْغَرانِ، فَكانا أَعْجَبَ تَوْأَمَيْنِ عَرَفَتْهُما بِلادُ الْهِنْدِ. فَقَدْ كانا — لِطُولِ أُلْفَتِهِما وَتَوافُقِ رَغَباتِهِما وَاتِّحادِ أَهْوائِهِما — لا يَفْتَرِقانِ فِي جِدٍ وَلا لَعِبٍ، وَلا يَخْتَلِفانِ فِي حُزْنٍ وَلا طَرَبٍ؛ يَضْحَكُ أَحَدُهُما إِذَا ضَحِكَ أَخُوهُ وَيَبْكِي إِذَا بَكَى، وَيَفْرَحُ إِذَا فَرِحَ وَيَتَأَلَّمُ إِذَا اشْتَكَى.

(٥) أُمْنِيَّةُ الشَّيْخِ

وَكانَ أَكْبَرُ مَا يَتَمَنَّاهُ الشَّيْخُ «بِهِشْما» أَنْ يَرَى حَفَدَتَهُ (أَبْناءَ وَلَدَيْهِ) مُتَّحِدِينَ أَقْوِياءَ، يَذُودُونَ (يُدافِعُونَ) عَنْ وَطَنِهِم وَيَرُدُّونَ عادِيَةَ الْمُعْتَدِينَ، وَبَطْشَ الْغُزَاةِ الْمُغِيرِينَ. وَبَحَثَ الشَّيْخُ عَنْ مُعَلِّمٍ يَعْهَدُ إِلَيْهِ بِتَعْلِيمِ حَفَدَتِهِ، وَطالَ بَحْثُهُ عَلَى غَيْرِ فائِدَةٍ، فَتَمَلَّكَهُ الْحُزْنُ وَساوَرَهُ الْقَلَقُ، بَعْدَ أَنْ رَأَى «دُرْيُدْهَانا» وَابْنَ عَمِّهِ «يُدِشْتِ-هِيرَا» يَقْتَرِبانِ مِن سِنِّ الرُّجُولَةِ، دُونَ



أَنْ يَتَدَرَّبا عَلَى الرِّمايَةِ، وَيَتَمَرَّسا بِضُرُوبِ الْحَرْبِ، وَفُنُونِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ؛ وَضاعَفَ مِن آلامِهِ أَنْ رَآهُما مُتَخَلِّفَيْنِ عَنْ أَتْرَابِهِما مِن شَبابِ الأُمَراءِ الْمُدَرَّبِينَ.

(٦) الْمُعَلِّمُ الْبارِعُ

وَشاءَ اللهُ — سُبْحانَهُ — أَلاَّ تَطُولَ حَيْرَةُ الشَّيْخِ، فَلَمْ يَلْبَثِ الأُمَراءُ الصِّغارُ أَنْ وَفِّقُوا إِلَى تَحْقِيقِ طِلْبَةِ جَدِّهِم، وَكانَ اهْتِدَاؤُهُم إِلَى أُسْتاذِهِم الْمَنْشُودِ أَسْعَدَ مُصادَفَةٍ ساقَها الْقَدَرُ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْخِ الْهَرِمِ، وَأَبْهَجَ مُفاجَأَةٍ أَدْخَلَتِ السُّرُورَ عَلَيْهِ.

(٧) الْكُرَةُ الْغارِقَةُ

كانَ الأُمَراءُ يَلْعَبُونَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِن إِحْدَى الآبارِ، فَقَذَفَ أَحَدُهُمْ بِالْكُرَةِ، فَهَوَتْ إِلَى الْبِئْرِ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى سَطْحِ مَائِها. وَكانَتْ كُرَةً ثَمِينَةً مُحَلَّاةً بِبَدائِعِ النُّقُوشِ، مُزْدانَةً بِرَوائِعِ التَّصاوِيرِ. وَقَدِ افْتَنَّ صَانِعُها فِيما أَبْدَعَهُ مِن صُوَرِ الْقُرُودِ وَالنُّمُورِ وَما إِلَيْها مِن حَيَوانِ الْغابَةِ. وَحاوَلَ الأُمَراءُ الصِّغارُ أَنْ يَسْتَرِدُّوا الْكُرَةَ بِالْعِصِيِّ تارَةً وَبِالْحِجارَةِ تارَةً أُخْرَى، فَلَمْ يُحالِفْهُمُ التَّوْفِيقُ، وَلَمْ يَظْفَرُوا مِن سَعْيِهِمْ بِغَيْرِ إِغْرَاقِهَا فِي قَرارِ الْبِئْرِ، فَاشْتَدَّ بِهِمُ الْقَلَقُ وَساوَرَهُمُ الْيَأْسُ مِن اسْتِرْدادِ كُرَتِهِم الثَّمِينَةِ. وَأَيْقَنُوا أَنَّهُمْ فَقَدُوها إِلَى الأَبَدِ. وَحانَتْ مِن الأُمَراءِ الْتِفاتَةٌ، فَرَأَوُا الشَّيْخَ النَّاسِكَ الذَّكِيَّ «دُرُونا» جالِسًا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنهُمْ، وَهُوَ يَشْخَصُ بِبَصَرِهِ إِلَيْهِمْ وَيَتْبَعُهُمْ بِنَظَراتِهِ النَّفَّاذَةِ.

وَهُنا الْتَفَتَ «أَرْجُونا» لأَصْحَابِهِ قائِلًا: «ماذا عَلَيْنا إِذا لَجَأْنا إِلَى هَذا الشَّيْخِ الْجَلِيلِ، لِنَلْتَمِسَ مِنهُ الْعَوْنَ، لَعَلَّهُ يَسْتَطِيعُ — بِما أُوتِيَ مِن خِبْرَةٍ وَسَعَةِ عِلْمٍ — أَنْ يُعِيدَ إِلَيْنَا الْكُرَةَ الْغارِقَةَ». فَأَمَّنَ أَصْحابُهُ عَلَى ما قالَ، وَاتَّجَهُوا جَمِيعًا إِلَى النَّاسِكِ الْهَرِمِ، وَأَفْضَوا إِلَيْهِ بِرَجائِهِمْ فِي إِنْجازِ مُلْتَمَسِهِمْ.

(٨) بَراعَةُ النَّاسِكِ

فَابْتَسَمَ الشَّيْخُ الْوَقُورُ، وَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَلْبِيَةِ رَغْبَةِ الأُمَراءِ، وَلَكِنَّهُ سُرْعانَ ما تَوارَتِ ابْتِسَامَتُهُ، وَأَعْقَبَها التَّجَهُّمُ، وَارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ دَلائِلُ الْغَيْظِ وَأَماراتُ الْكَمَدِ، حِينَ تَبَيَّنَ عَجْزَ الأَمْراءِ الْفِتْيانِ عَنْ إِخْراجِ الْكُرَةِ الْغارِقَةِ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ قائِلًا فِي لَهْجَةٍ حازِمَةٍ آسِفَةٍ: «تَبًّا لَكُمْ مِن صِبْيَةٍ عَجَزَةٍ أَغْرَارٍ! كَيْفَ تَضِيقُونَ ذَرْعًا بِإِخْراجِ الْكُرَةِ الْغارِقَةِ، وَأَنْتُمْ أَبْناءُ أَعْظَمَ

أُسْرَتَيْنِ أَنْجَبَتْهُما بِلادُ الْهِنْدِ. كَيْفَ تَعْجِزُونَ يا أَبْناءَ «الضَّرِيرِ» وَ«الشَّهِيدِ»؟ أَلا تَرَوْنَ الْكُرَةَ واضِحَةً مِن خِلالِ الْماءِ الصَّافِي، لا يَحْجُبُها عَنْ أَبْصارِكُمْ شَيْءٌ؟ خَبِّرُونِي أَيُّها الضِّعافُ: مَنْ أُسْتاذُكُمُ الَّذِي يُعَلِّمُكُمُ الرِّمايَةَ وَيُدَرِّبُكُمْ عَلَى فُنُونِها؟»

فَأَجابَهُ الصِّبْيَةُ الأَمَراءُ مُتَحَسِّرِينَ: «لَيْسَ لَنا مَعَ الأَسَفِ أُسْتاذٌ يُشْرِفُ عَلَى تَعْلِيمِنا فُنُونَ الرِّمايَةِ.»

فَعَجِبَ النَّاسِكُ مِمَّا سَمِعَ، وَاشْتَدَّ دَهَشُهُ حِينَ سَمِعَهُمْ يَتَصايَحُونَ قائِلِينَ: «خَبِّرْنا أَيُّها النَّاسِكُ الْجَلِيلُ: أَفِي مَقْدُورِكَ أَنْ تُعِيدَ إِلَيْنا الْكُرَةَ الْمَفْقُودَةَ؟ وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ؟!».

فَصَرَخَ فِيهِمْ غاضِبًا: «شَدَّ ما أَسْرَفْتُمْ فِي اللَّجاجَةِ وَالْهَذَيانِ، حِينَ أَكْبَرْتُمْ ما صَغُرَ مِن شَأْنِ هَذِهِ الْغايَةِ الْيَسِيرَةِ، وَعَظَّمْتُمْ مِن أَمْرِها ما حَقَرَ».

ثُمَّ انْتَزَعَ مِن إِصْبَعِهِ خاتَمًا مِن الْياقُوتِ، وَقَذَفَ بِهِ إِلَى الْبِئْرِ حَيْثُ تَسْتَقِرُ الْكُرَةُ، وَقالَ لَهُمْ فِي لَهْجَةِ السَّاحِرِ الْواثِقِ: «لَنْ أَكْتَفِيَ بِإِخْراجِ الْكُرَةِ وَحْدَها، بَلْ أَزِيدَ عَلَيْها إِخْراجَ خاتَمِ الْياقُوتِ الَّذِي قَذَفْتُ بِهِ أَمامَكُمْ.»

وَلا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ الأُمَراءِ، حِينَ رَأَوُا النَّاسِكَ الْهَرِمَ يَنْحَنِي عَلَى قَبْضَةٍ مِن الْحَشائِشِ، فِيتَخَيَّرُ مِنها سَهْمًا يَضَعُهُ فِي قَوْسِهِ وَيُسَدِّدُهُ — فِي مَهارَةٍ وَإِحْكامٍ — إِلَى الْكُرَةِ الْغارِقَةِ فِي أَعْماقِ الْبِئْرِ، فِينْفَذَ السَّهْمُ فِي الْكُرَةِ، كَما تَنْفَذُ الإِبْرَةُ فِي الْحَرِيرِ.

وَسَدَّدَ النَّاسِكُ سَهْمًا آخَرَ فَنَفَذَ فِي نِهايَةِ السَّهْمِ الأَوَّلِ، ثُمَّ راحَ يُسَدِّدُ سِهامَهُ فِيشْتَبِكُ الْواحِدُ بِأَعَلَى طَرَفِ الآخَرِ، حَتَّى تَأَلَّفَتِ مِن السِّهامِ عَصًا طَوِيلَةٌ تَرْتَفِعُ إِلَى مُتَناوَلِ يَدِهِ، فَأَمْسَكَ بِها، وَقَذَفَ بِالْكُرَةِ إِلَى الصِّبْيَةِ الْمَشْدُوهِينَ الَّذِينَ أَذهَلَهَمُ ما رَأَوْهُ مِن بَراعَةِ النَّاسِكِ وَمَهارَتِهِ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَتَساءَلُونَ: «ما أَعْجَبَ ما صَنَعْتَ! فَخَبِّرْنا كَيْفَ تُخْرِجُ الْخاتَمَ مِن قَرارِ الْبِئْرِ السَّحِيقِ؟»

وَسُرْعانَ ما فَتَحَ النَّاسِكُ جَعْبَتَهُ، وَتَخَيَّرَ مِنها سَهْمًا وَضَعَهُ فِي قَوْسِهِ ثُمَّ سَدَّدَهُ إِلَى الْخاتَمِ. يا للهِ: أَيُّ ساحِرٍ هَذا الرَّجُلُ؟ يا لَلْعَجَبِ! أَحَقٌّ ما تَراهُ أَعْيُنُهُمْ؟ أَمْ هُوَ ضَرْبٌ مِن الأَوْهامِ خَيَّلَهُ لَهَمُ السَّاحِرُ الْعَجِيبُ؟ أَتَعْرِفُ ماذا رَأَى الأُمَراءُ الصِّغارُ؟ رَأَوُا السَّهْمَ لا يَنْطَلِقُ مِن قَوْسِهِ حَتَّى يَرْتَدَّ إِلَى صاحِبِهِ، حامِلًا فِي طَرَفِهِ الدَّقِيقِ خاتَمَ الْياقُوتِ.



هُنا لَمْ يَتَمالَكُوا أَنْ يُصَفِّقُوا وَيَقْفِزُوا حَوْلَهُ، مُرَدِّدِينَ آياتِ الإِعْجابِ بِما رَأَوْا مِن قُدْرَةٍ خارِقَةٍ، بَعْدَ أَنْ شَهِدُوا ما أَنْساهُمْ بَراعَةَ السَّحَرَةِ وَالْعَجائِبِيِّينَ (الْحُواةِ) الَّذِينَ كانُوا يَفِدُونَ فِي الْمَواسِمِ وَالأَعْيادِ، لِيَعْرِضُوا عَلَيْهِمْ ما بَرَعُوا فِيهِ مِن تَرْوِيضِ الأَفاعِي وَابْتِلاعِ السُّيُوفِ وَما إِلَى ذَلِكَ مِن فُنُونِهِمُ الْمُعْجِبَةِ.

(٩) بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ

وهنا بَرَزَ «يُدِشْتِ-هِيرا»، مِنَ الصَّفِّ، وَأَشارَ إِلَى أَصْحابِهِ أَنْ يَكُفُّوا عَنْ ضَوْضائِهِمْ — وَكانَ «يُدِشْتِ-هِيرا» أَكْبَرَ أَبْناءِ أَبِيهِ سِنًّا — وَانْدَفَعَ إِلَى النَّاسِكِ يَسْأَلُهُ مُتَوَدِّدًا: «بِماذا نَسْتَطِيعُ

أَنْ نُعَبِّرَ عَنْ شُكْرِنا لِهَذا الصَّنِيعِ الْباهِرِ؟ وَأَيُّ هَدِيَّةٍ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُقَدِّمَها عَرْبُونًا لاعْتِرافِنا بِالْجَمِيلِ؟»

فَالْتَفَتَ النَّاسِكُ إِلَى الأُمَراءِ قَائِلًا: «خَبِّرُوا جَدَّكُمْ «بِهشْما» الْعَظِيمَ أَنْ «دُرُونا» — الَّذِي لا يُخْطِئُ سَهْمُهُ الْهَدَفَ — قَدْ واصَلَ السَّيْرَ أَمْيالًا حَتَّى وَفَدَ عَلَيْكُمْ، وَهُوَ الآنَ جائِعٌ عَطْشانُ، يُعْوِزُهُ الطَّعامُ وَالشَّرابُ.»

فَأَسْرَعَ الصِّبْيَةُ الأُمَراءُ إِلَى جَدِّهِمُ الْمَلِكِ، وَانْدَفَعُوا يَتَسابَقُونَ لِيُحَدِّثُوهُ بِقِصَّةِ النَّاسِكِ. وَما إِنْ سَمِعَ «بِهِشْما» بِاسْمِ «دُرُونا» حَتَّى صاحَ مُتَعَجِّبًا: «يا للهِ! «دُرُونا»! هُنا «دُرُونا» قَدْ حَلَّ بِأَرْضِنا، وَوَصَلَ إِلَى مَمْلَكَتِنا!؟ ما أَسْعَدَهُ خَبَرًا! أَسْرِعُوا بِإِحْضارِهِ أَيُّها الْحَفَدَةُ الأَعِزَّاءُ!».

وَذَهَبَ الأُمَراءُ إِلَى النَّاسِكِ «دُرُونا» يَدْعُونَهُ لِلِقاءِ جَدِّهِمْ، وَأَسْرَعُوا إِلَى الْبابِ فَفَتَحُوهُ لَهُ. فَلَمَّا مَثَلَ «دُرُونا» بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ حَيَّاهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ مُتَرَبِّعًا (ثانِيًا قَدَمَيْهِ إِلَى ما تَحْتَ فَخِذَيْهِ، مُخالِفًا لَهُما) داعِمًا رَأْسَهُ بِراحَتَيْهِ (بِيَدَيْهِ)، شاخِصًا بِبَصَرِهِ إِلَيْهِ. فَابْتَدَرَهُ الْمَلِكُ مُرَحِّبًا، ثُمَّ خَتَمَ تَرْحِيبَهُ قائِلًا: «لَقَدْ طالَتْ غَيْبَتُكَ عَنَّا يا «دُرُونا» وَأَنْتَ تَعْلَمُ فَرْطَ شَوْقِنا إِلَى لُقْياكَ! عَلَى أَنَّ ذِكْراكَ لَمْ تَغِبْ عَنْ خاطِرِنا قَطُّ! وَأَخْبارَكَ لَمْ تَنْقَطِعْ عَنَّا. وَقَدْ أَثْلَجَ صَدْرَنا ما ذاعَ — فِي جَمِيعِ بِلادِ الْهِنْدِ — مِن أَنْباءِ بَراعَتِكَ فِي الرِّمايَةِ وَمَهارَتِكَ، وَزَهادَتِكَ فِي الدُّنْيا وَقَناعَتِكَ.»

(١٠) حَدِيثُ النَّاسِكِ

فَقالَ النَّاسِكُ: «شُكْرًا لَكَ يا سَيِّدِي عَلَى ما غَمَرْتَنِي بِهِ مِن ثَناءٍ. فَهَلْ تَأْذَنُ لِي فِي مُحادَثَتِكَ عَلَى انْفِرادٍ.»

فَقالَ الْمَلِكُ: «ما أَشْوَقَنِي إِلَى حَدِيثِكَ.»

فَلَمَّا خَلا الْمَكانُ إِلَّا مِنهُما، بَدَأَ النَّاسِكُ حَدِيثَهُ قَائِلًا:

«قَضَيْتُ أَيَّامَ شَبابِي — أَيُّها الْمَلِكُ الْعَظِيمُ — فِي صُحْبَةِ الأُمَراءِ، وَتَلَقَّيْتُ فُنُونَ الرِّمايَةِ وَضُرُوبَ الْحَرْبِ مَعَ أَبْنائِهِمْ. وَكانَ الأَمِيرُ «دُرُوپادا» أَصْدَقَ خُلَصائِي، وَأَكْرَمَ أَصْفِيائِي. وَقَدْ أَصْبَحَ ذَلِكَ الأَمِيرُ مَلِكَ «الْبَنْغالِ» وَلا يَزالُ مَلِكًا عَلَيْها إِلَى الآنَ. وَقَدْ تَحالَفْنا مُنذُ تَعارَفْنا عَلَى الْوَفاءِ جَمِيعًا، وَأَقْسَمْنا عَلَى أَنْ يَكُونَ كِلانا عَوْنًا لِصاحِبِهِ فِي الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ عَلَى



السَّواءِ. وَمَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ أَعْوامٌ، ثُمَّ آثَرْتُ الزُّهْدَ، فَعَكَفْتُ عَلَى الْعِبادَةِ زَمَنًا، وَاخْتَرْتُ الْعُزْلَةَ، فَعِشْتُ كَما يَعِيشُ النُّسَّاكُ فِي الْغابَةِ، وَقَضَيْتُ فِي هَذِهِ الْحَياةِ الْوادِعَةِ رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ.

ثُمَّ رَغِبْتُ فِي الْحَياةِ الزَّوْجِيَّةِ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ رُزِقْتُ طِفْلًا مَلأَ الدُّنْيا عَلَيَّ بَهْجَةً وَسَعادَةً. فَحَبَّبَ إِلَيَّ الْعَوْدَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ بَعْدَ أَنْ طالَ أُنْسِي بِحَياةِ الْغابَةِ! وَلَوْلا غُلامِي لَمَا فَكَّرْتُ فِي الاخْتِلاطِ بِالنَّاسِ وَاسْتِئْنافِ حَياتِيَ الأُولَى.

وَكانَ «دُرُوپَادَا» أَوَّلَ مِن قَصَدْتُ لأَسْأَلَهُ الْمالَ وَالْكِساءَ. وَلَعَلَّكَ تَسْأَلُنِي: أَيُّ مَوْرِدٍ كُنْتُ أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى تَحْصِيلِ قُوتِي فِي الْغابَةِ؟! فَإِلَيْكَ جَوابِي: لَقَدْ كانَ طُلَّابُ الرِّمايَةِ يَفِدُونَ عَلَى الْغابَةِ لِيَتَلَقَّوْا عَنِّي فُنُونَها، وَكُنْتُ أَجِدُ فِي تَدْرِيبِهِمْ عَلَى اسْتِعْمالِ أَنْواعِ السِّلاحِ سُرُورًا عَظِيمًا وَشَحْذًا لِمَوْهِبَتِي الَّتِي اخْتَصَّنِي بِها اللهُ، حَتَّى لا تَتَعَطَّلَ كِفايَتِي، فَإِنَّ الْعِلْمَ يُفْقَدُ بِالتَّرْكِ، وَالسَّيْفَ الْقاطِعَ إِذا بَطَلَ اسْتِعْمالُهُ وَطالَ إِهْمالُهُ عَلاه الصَّدَأُ، وَدَبَّ إِلَى مَعْدِنِهِ الْفَسادُ. كانَ هَذا مَصْدرَ عَيْشِي فِي الْغابَةِ، قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى «دُرُوپَادَا» مَلِكِ «الْبَنْغالِ».

أَتَعْرِفُ كَيْفَ لَقِيَنِي صَدِيقِيَ الْوَفِيُّ الْكَرِيمُ؟ بِالسُّخْرِيَةِ وَالاحْتِقارِ قابَلَنِي، وَبِالْمَهانَةِ وَالطَّرْدِ شَيَّعَنِي، وَبِالنُّسْكِ وَالْفَقْرِ عَيَّرَنِي.

وا حَسْرَتاهُ! شَدَّ ما تَنَكَّرَ لِي وَامْتَهَنَ حُبِّي، وَتَعالَى عَلَيَّ وَاحْتَقَرَ صَداقَتِي، زاعِمًا أَنَّهُ لا يَعْرِفُ «دُرُونا»، كَما زَعَمَ أَنَّ جَلالَ الْمُلْكِ لا يَتَّفِقُ مَعَ حَقارَةِ الْفَقْرِ، وَأَنَّ مِن الصَّفاقَةِ وَالْغُرُورِ وَالْحَماقَةِ، أَنْ يَطْمَعَ صُعْلُوكٌ فِي مُصاحَبَةِ الْمُلُوكِ.

كَذَلِكَ قالَ «دُرُوپَادَا»، فَلا تَعْجَبْ — يا سَيِّدِي — إِذا امْتَلَأَتْ نَفْسِي احْتِقارًا لِهَذا الْغادِرِ. وَلا تَدْهَشْ إِذا عاهَدْتُ نَفْسِي عَلَى تَأْدِيبِهِ، وَأَقْسَمْتُ لأُخَفِّفَنَّ مِن غُلَوائِهِ، وَلأُذِلَّنَّ مِن كِبْرِيائِهِ، وَلأَجْعَلَنَّهُ لا يَذْكُرُ اسْمِي مَدَى الْحَياةِ بِغَيْرِ الْبُكاءِ وَالأَسَفِ، وَالْحَسْرَةِ عَلَى ما جَرَّهُ إِلَيْهِ الْغُرُورُ وَالصَّلَفُ.

لَقَدْ وَهَبْتُ حَياتِي لِهَذِهِ الْغايَةِ. فَأَنا أَسْتَيْقِظُ مَعَ الْفَجْرِ — فِي كُلِّ يَوْمٍ — لِتَدْرِيبِ الطُّلابِ عَلَى الرِّمايَةِ، وَتَلْقِينِهِمْ أُصُولَها. وَما إِنْ عَلِمْتُ بِرَغْبَتِكَ فِي تَثْقِيفِ حَفَدَتِكَ، حَتَّى واصَلْتُ اللَّيْلَ بِالنَّهارِ، لِكَيْ أَبْلُغَ حاضِرَةَ مُلْكِكَ، لِتَحْقِيقِ هَدَفِكَ، وَإِنْجازِ رَغْبَتِكَ.»

(١١) مُعَلِّمُ الْحَفَدَةِ

فَأَجابَهُ «بِهِشْما» قائِلًا:

«شُكْرًا لَكَ أَيُّها النَّاسِكُ الْجَلِيلُ. الآنَ تَهْدَأُ بالًا وَتَقَرُّ عَيْنًا، فَأَنْتَ لِحَفَدَتِي — مِنذُ الْيَوْمِ — فِي مَرْتَبَةِ الْوالِدِ وَمِنزلَةِ الأُسْتاذِ، وَسَتَعِيشُ فِي قَصْرِي مَوْفُورَ الإِعْزازِ وَالإِجْلالِ.

لَقَدْ ساقَتْكَ الْعِنايَةُ الإِلَهِيَّةُ لِتَدْرِيبِ أَبْناءِ: الضَّرِيرِ وَالشَّهِيدِ، بَعْدَ أَنْ طالَ بِهِمُ الشَّوْقُ، وَجَهَدَهُمُ الْبَحْثُ عَنْ مُدَرِّسٍ كُفْءٍ بارِعٍ فَكُلِّلَ سَعْيُهُمْ بِالنَّجاحِ.»

فَلَمَّا جاءَ الْيَوْمُ التَّالِي، ذَهَبَ النَّاسِكُ«دُرُونا» مَعَ الأُمَراءِ إِلَى بُقْعَةٍ فَسِيحَةٍ فِي الْغابَةِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْلِسُوا حَوْلَهُ عَلَى هَيْئَةِ دائِرَةٍ. ثُمَّ سَأَلَهُمْ فِي لَهْجَةٍ جادَّةٍ حازِمَةٍ:

«لَقَدِ الْتَقَتْ رَغَباتُكُمْ فِي هَدَفٍ واحِدٍ، هُوَ الْفَوَقانُ عَلَى جَمِيعِ أُمَراءِ الْهِنْدِ فِي فُنُونِ الْحَرْبِ، وَالتَّمَرُّسِ بِمُخْتَلِفِ أَسْلِحَتِها وَعَتادِها. وَقَدْ أَخَذْتُ نَفْسِي بِتَحْقِيقِ مَطْلَبِكُمُ الْجَلِيلِ، ذَلِكَ عَهْدٌ عَلَيَّ وَمِيثاقٌ.

وَقَدْ بَقِيَ لِي مَطْلَبٌ وَقَفْتُ ما بَقِيَ مِن حَياتِي عَلَى تَحْقِيقِهِ؛ فَهَلْ تُعاهِدُونَنِي عَلَى الْوَفاءِ بِذَلِكَ مَتَى جَدَّ الْجِدُّ؟»

وَما إِنْ سَمِعَ الأُمَراءُ قَوْلَتَهُ، حَتَّى دَبَّ الْهَلَعُ إِلَى نُفُوسِهِمْ، وَارْتَسَمَ الْفَزَعُ عَلَى أَسارِيرِهِمْ، بَعْدَ أَنْ جَهِلُوا ما يَعْنِيهِ، فَعَقَدَ الدَّهَشُ وَالْحَيْرَةُ أَلْسِنَتَهُمْ.

وَلَكِنْ سُرْعانَ ما دَوَّى صَوْتٌ عالِي النَّبَراتِ، وَهُوَ صَوْتُ «أَرْجُونا»: أَوْسَطِ أَبْناءِ الشَّهِيدِ، يُجَلْجِلُ فِي حَماسَةٍ وَقُوَّةٍ، مُلَبِّيًا دَعْوَةَ أُسْتاذِ الرِّمايَةِ، مُعْلِنًا فِي غَيْرِ تَهَيُّبٍ وَلا تَرَدُّدٍ، أَنْ يَقِفَ حَياتَهُ كُلَّها عَلَى نُصْرَةِ أُسْتاذِهِ وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ.

وَرَآهُ النَّاسِكُ يَقْفِزُ مُتَّجِهًا إِلَيْهِ، وَهُوَ يَنْطِقُ بِهَذِهِ الْكَلِماتِ الْفِياضَةِ بِالصِّدْقِ وَالإِخْلاصِ، فانْدَفَعَ يُعانِقُهُ فِي لَهْفَةٍ وابْتِهاجٍ.

وَهَكَذا تَوَثَّقَتْ أَواصِرُ الْمَوَدَّةِ بَيْنَ الأُسْتاذِ الْكَبِيرِ وَالْبَطَلِ الصَّغِيرِ، فَلَمْ يَأْلُ جَهْدًا فِي تَعَهُّدِهِ بِكُلِّ ما أُوتِيَ مِن خِبْرَةٍ وَدُرْبَةٍ وَمَهارَةٍ؛ كَما يَتَعَهَّدُ الْوالِدُ وَلَدَهُ، وَراحَ يُؤْثِرُهُ بِصادِقِ عَطْفِهِ، وَيُفَضِّلُهُ عَلَى جَمِيعِ الأُمَراءِ.

وَكانَ الأَمِيرُ الْفَتَى حَرِيصًا عَلَى التَّعَلُّمِ؛ فَلَمْ يُضِعْ لَفْظًا واحِدًا — تَنْطِقُ بِهِ شَفَتاهُ — إِلَّا حَفِظَهُ وَوَعاهُ.

وَلَمْ يَلْبَثِ الْفَتَى أَنْ حَذَقَ فُنُونَ الْحَرْبِ وَبَرَعَ فِي أَسالِيبِ الرِّمايَةِ كُلِّها، وَفاقَ فِيها جَمِيعَ إِخْوانِهِ، وَسارَ فِي ذَلِكَ سِيرَةَ أُسْتاذِهِ فِي تَعَهُّدِ قَوْسِهِ وَسِهامِهِ.



وَذاتَ يَوْمٍ ظَلَّ الأُسْتاذُ يُمَرِّنُ الأُمَراءَ فِي الْغابَةِ، حَتَّى حَلَّ ظَلامُ اللَّيْلِ — وَهُمْ عَلَى مَسافَةٍ بَعِيدَةٍ مِن الْقَصْرِ — فَأَشارَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْلِسُوا، وَقَدَّمَ لِكُلٍّ مِنهُمْ قَلِيلًا مِن الرُّزِّ وَالْفاكِهَةِ، حَتَّى لا يَهْلِكُوا جُوعًا بَعْدَ أَنْ جَهَدَهُمُ التَّعَبُ طُولَ النَّهارِ.

(١٢) نَجْوَى «أَرْجُونا»

وَلَمَّا انْتَهَى «أَرْجُونا» مِنَ الطَّعامِ، طافَ بِذِهْنِهِ خاطِرٌ جَدِيدٌ، فَراحَ يُسائِلُ نَفْسَهُ مُتَعَجِّبًا.

«لَقَدْ أَكَلْتُ طَعامِي اللَّيْلَةَ فِي ظَلامٍ دامِسٍ، وَكانَتْ يَدِي تَمْتَدُّ إِلَى الزَّادِ، ثُمَّ تَحْمِلُهُ إِلَى فَمِي فِي يُسْرٍ وَسُهُولَةٍ.

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنْ يَتِمَّ هَذَا، دُونَ أَنْ أَسْتَعِينَ بِعَيْنَيَّ. وَكانَ السِّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ يَدِي قَدْ مَرَنَتْ عَلَى حَمْلِ الطَّعامِ إِلَى فَمِي، وَأَلِفَتْ ذَلِكَ وَتَعَوَّدَتْهُ زَمَنًا طَوِيلًا.

فَما بالُ يَدِي لَمْ تَتَعَوَّدْ إِلَى الآنَ أَنْ تَشُدَّ الْقَوْسَ وَتَرْمِيَ السَّهْمَ، لِتُصِيبَ الْهَدَفَ — مُكْتَفِيَةً فِي إِصابَتِهِ بِالأُذُنِ — دُونَ حاجَةٍ إِلَى الْعَيْنِ؟ لِماذا لا أَسْتَغْنِي بِسَماعِ الصَّوْتِ عَنْ رُؤْيَةِ مَصْدَرِهِ؟»

وَهَكَذا بَدَأَ تَدْرِيبَهُ عَلَى الصَّيْدِ فِي الظَّلامِ، فَراحَ يُصَوِّبُ سِهامَهُ إِلَى الطُّيُورِ الْمُغَرِّدَةِ عَلَى غُصُونِ الأَشْجارِ الْعالِيَةِ، مُكْتَفِيًا بِصَوْتِها، مُسْتَعِينًا بِتَغْرِيدِها عَنْ رُؤْيَتِها.

(١٣) فَرْحَةُ الأُسْتاذِ

وَسَمِعَ «دُرُونا» رَنِينَ الْقَوْسِ — وَهِيَ تَرْمِي بِالسَّهْمِ فَأَدْرَكَ ما جالَ بِخاطِرِ تِلْمِيذِهِ.

فانْدَفَعَ إِلَيْهِ يَشُدُّ عَلَى يَدِهِ مُهَنِّئًا، وَيَقُولُ لَهُ مُتَحَمِّسًا: «إِنَّ اسْمَ «أَرْجُونا» وَشِيكٌ أَنْ يُدَوِّيَ فِي الآفاقِ، وَيُصْبِحَ أَعْظَمَ مَنْ رَمَى بِالسِّهامِ.!»

وَكانَ الأَمِيرُ الْفَتَى «دُرْيُدْهانا» عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُما، وَكانَ قَلْبُهُ مُفْعَمًا بِالْحِقْدِ عَلَى ابْنِ عَمِّهِ، لِما مَيَّزَهُ اللهُ بِهِ مِنْ بَراعَةٍ خارِقَةٍ (فائِقَةٍ).

فَلَمَّا سَمِعَ ثَناءَ مُعَلِّمِ الرِّمايَةِ عَلَيْهِ، كادَ الْحَسَدُ يُزْهِقُ رُوحَهُ الشِّرِّيرَةَ الْخَبِيثَةَ، فَراحَ يَحْرُقُ الأُرَّمَ (يَحُكُّ أَضْراسَهُ بَعْضَها بِبَعْضٍ مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ)، شَأْنُ ضِعافِ النُّفُوسِ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ، الَّذِينَ يَقْعُدُ بِهِمُ الْعَجْزُ عَنْ إِحْرازِ قَصَبِ السَّبْقِ، فَلا يَجِدُونَ وَسِيلَةً لِشِفاءِ صُدُورِهِمْ غَيْرَ الْكَيْدِ وَالدَّسِّ وَالْوَقِيعَةِ.

وَأَقْبَلَ الْفَتَى عَلَى نَفْسِهِ يُخاطِبُها قائِلًا:

«لَئِنْ أَعْجَزَتْنِي مُباراةُ هَذا الْبارِعِ الْفَذِّ، لَمْ يُعْجِزْنِي أَنْ أَهْتَدِيَ إِلَى مَنْ يُنافِسُهُ وَيَقْهَرُهُ وَيُرِيحُنِي مِنْهُ. نَعَمْ يُرِيحُنِي مِنْهُ، فَلَنْ يَطِيبَ لِيَ الْعَيْشُ ما دامَ هَذا الْفَتَى عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ!».

وَهَكَذا نَمَتْ أَحْقادُ الْحاسِدِ، وَتَأَجَّجَتْ نِيرانُ الْغَيْرَةِ فِي صَدْرِهِ، كُلَّما رَأَى بَراعَةَ مُنافِسِهِ تَزْدادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

كانَ «بِهِشْما» قَدْ وَكَلَ إِلَى «دُرُونا» — مُعَلِّمِ الرِّمايَةِ — تَعْلِيمَ حَفَدَتِهِ — كَما عَلِمْتَ — وَلَكِنَّ شُهْرَةَ «دُرُونا» وَذُيوعَ صِيتِهِ جَذَبا إِلَيْهِ كَثِيرًا مِنْ أُمَراءِ الْمَمالِكِ الْمُجاوِرَةِ الأُخْرَى.

وَقَدْ أَذِنَ لَهُ الْمَلِكُ فِي تَعْلِيمِهِمْ مَعَ حَفَدَتِهِ، وَهُوَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ بَراعَةِ حَفَدَتِهِ وَفَوْزِهِمْ عَلَى كُلِّ مُنافِسٍ.

وَكانَ بَيْنَ الزَّائِرِينَ الْجُدُدِ صَبِيٌّ يُسَمَّى «كَرْنا» تَلُوحُ عَلَى أَسارِيرِهِ (خُطُوطِ جَبِينِهِ) سِماتُ الإِمارَةِ وَالنُّبْلِ، وَرَجاحَةُ الْعَقْلِ، وَإِنْ كانَ مَجْهُولَ الأَبَوَيْنِ.

وَكانَتْ تَبْدُو فِي نَظَراتِهِ الْحَزِينَةِ الْهادِئَةِ مَعانٍ غَيْرُ واضِحَةِ الْمَعالِمِ. وَقَدْ رَضِيَهُ الأُمَراءُ زَمِيلًا لَهُمْ حِينَ رَأَوْا مُعَلِّمَ الرِّمايَةِ يُحْسِنُ اسْتِقْبالَهُ، وَيُكْرِمُ وِفادَتَهُ، وَيَخْتَصُّهُ بِعَطْفِهِ؛ وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لَهُ بِسُوءٍ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ فِيهِ ظُنُونُهُمْ، وَتَبايَنَتْ آراؤُهُمْ.

وَقَدْ تَجَلَّتْ بَراعَتُهُ مُنْذُ قُدُومِهِ، وَلاحَتْ نَجابَتُهُ وَدُرْبَتُهُ عَلَى جَمِيعِ أَنْواعِ السِّلاحِ.

وَكانَ مِثالَ الطَّالِبِ الْجادِّ؛ يُحْسِنُ الاسْتِماعَ إِلَى ما يَقُولُ الأُسْتاذُ فِي انْتِباهٍ وَيَقَظَةٍ دائِمَيْنِ، فَلا تَفُوتُهُ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وَلا تَعْزُبُ عَنْهُ (لا تُفْلِتُ مِنْهُ) إِشارَةٌ أَوْ حَرَكَةٌ.

فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ فاقَ أَصْحابَهُ، وَبَذَّ رِفاقَهُ، وَاجْتَمَعَ الرَّأْيُ عَلَى أَنَّ بَراعَتَهُ لا تَقِلُّ عَنْ بَراعَةِ «أَرْجُونا» نَفْسِهِ.

وَهَكَذا بَدَأَ التَّنافُسُ الْحَمِيدُ بَيْنَ الْبَطَلَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ.

وَرَأَى الْفَتَى الْحاسِدُ «دُرْيُدْهانا» كَبِيرُ أَبْناءِ «الضَّرِيرِ» فُرْصَةً لِلْكَيْدِ لِمُنافِسِهِ. فَراحَ يَتَقَرَّبُ إِلَى «كَرْنا» وَيَغْمُرُهُ بِالثَّناءِ وَالْعَطاءِ.

وَقَدْ أَهْدَى إِلَيْهِ ذاتَ يَوْمٍ كِيسَ نُقُودٍ مُطَرَّزًا بِالْياقُوتِ وَالزُّمُرُّدِ، كَما أَهْدَى إِلَيْهِ فِيلًا صَغِيرًا وَصُنْدُوقًا ثَمِينًا مِنَ الآبَنُوسِ، نُقِشَتْ عَلَيْهِ بَدائِعُ لا تُحْصَى، فَإِذا فُتِحَ فاحَ مِنْهُ عِطْرٌ ذَكِيٌّ يُنْعِشُ الأَرْواحَ وَيُبْهِجُ النُّفُوسَ.

وَهَكَذا اسْتَجْلَبَ مَوَدَّةَ «كَرْنا» واكْتَسَبَ صَداقَتَهُ. ثُمَّ راحَ يُعْمِلُ الْحِيلَةَ لِإِذْكاءِ نارِ الْحِقْدِ بَيْنَ «كَرْنا» وَبَيْنَ ابْنِ عَمِّهِ «أَرْجُونا»، وَيَفْتَنُّ فِي تَحْوِيلِ الْمُنافَسَةِ الشَّرِيفَةِ إِلَى خُصُومَةٍ عَنِيفَةٍ.

وَقَدْ أَخْفَقَ فِيما هَدَفَ لَهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ بُلُوغِ مَأْرَبِهِ الْخَبِيثِ.

وَرَأَى الطُّلابُ أَنَّ الْفَتَى الصَّامِتَ كانَ يَقِلُّ كَلامُهُ مَعَ أَبْناءِ «الشَّهِيدِ» وَيَكْثُرُ مَعَ أَبْناءِ «الضَّرِيرِ»، وَزادَ ذَلِكَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

(١٤) يَوْمُ الامْتِحانِ

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ تِباعًا، ثُمَّ خَطَرَ لِمُعَلِّمِ الرِّمايَةِ أَنْ يَمْتَحِنَ طُلَّابَهُ، فَجَمَعَهُمْ فِي مَيْدانٍ فَسِيحٍ، وَأَحْضَرَ مَعَهُ تِمْثالًا صَنَعَهُ عَلَى هَيْئَةِ طائِرٍ، وَثَبَّتَهُ فِي رَأْسِ شَجَرَةٍ عالِيَةٍ. ثُمَّ قالَ لِطُلَّابِهِ:

«قِفُوا عَلَى مَسافَةِ ثَلاثِينَ خُطْوَةً، وَتَأَهَّبُوا (اسْتَعِدُّوا) لِلرِّمايَةِ واحِدًا بَعْدَ واحِدٍ، وَلْيَكُنْ رَأْسُ هَذا الطَّائِرِ هَدَفَ رِمايَتِكُمْ جَمِيعًا. صَوِّبُوا إِلَيْهِ سِهامَكُمْ، وَحاوِلُوا أَنْ تُحَطِّمُوهُ.»

وَتَأَهَّبَ الْجَمِيعُ لِتِنْفِيذِ إِشارَةِ الأُسْتاذِ، وَصَوَّبُوا إِلَيْهِ سِهامَهُمْ، وَنُفُوسُهُمْ ثائِرَةٌ يَسُودُها الاضْطِرابُ وَالْقَلَقُ. وَاسْتَأْنَفَ «دُرُونا» قائِلًا:

«لِيَكُنْ أَوَّلُ الرُّماةِ أَكْبَرَ الأُمَراءِ سِنًّا.»

فَوَقَفَ «دُرْيُدْهانا» رافِعًا قَوْسَهُ. فَصاحَ بِهِ الأُسْتاذُ قائِلًا: «خَبِّرْنِي بِما تَراهُ أَيُّها الأَمِيرُ: أَتَرَى الطَّيْرَ؟»

فَأَجابَهُ: «نَعَمْ أَراهُ.»

فَقالَ مُعَلِّمُ الرِّمايَةِ: «أُرِيدُ أَنْ تَتَوَخَّى الدِّقَّةَ فِيما تَقُولُ؛ فَتُخْبِرَنِي بِما تَرَى: إِيَّايَ؟ أَمْ أَصْحابَكَ؟ أَمِ الشَّجَرَةَ؟ أَمِ الطَّيْرَ؟»

فَأَجابَهُ: «أَراهُمْ جَمِيعًا.»

فَقالَ الأُسْتاذُ: «ضَعِ الْقَوْسَ يا فَتَى، وَتَنَحَّ جانِبًا، فَما أَنْتَ بِقادِرٍ عَلَى الْمُنافَسَةِ.»

فَتَنَحَّى «دُرْيُدْهانا» وَقَدْ غَمَرَهُ الْخَجَلُ لِما مُنِيَ بِهِ مِنْ إِخْفاقٍ، وَلَمْ يَدْرِ ماذا أَغْضَبَ مُعَلِّمَ الرِّمايَةِ فِي كَلامِهِ.

وَنادَى الْمُعَلِّمُ تَلامِيذَهُ: واحِدًا بَعْدَ واحِدٍ، وَأَعادَ عَلَيْهِمْ سُؤالَهُ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ جَوابُ أَحَدِهِمْ عَنْ سابِقِهِ، كُلُّهُمْ قالَ:

«نَعَمْ نَراكَ وَنَرَى أَصْحابَنا وَنَرَى الشَّجَرَةَ وَنَرَى الطَّائِرَ عَلَى قِمَّتِها.»

وَهَكَذا تَنَحَّى الْجَمِيعُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمُتَبارِيانِ الْبارِعانِ: «كَرْنا» وَ«أَرْجُونا». وَارْتَسَمَ الْحُزْنُ عَلَى وَجْهِ الْمُعَلِّمِ، وَغَصَّتْ عَيْناهُ بِالدُّمُوعِ، لِما رَآهُ مِنْ إِخْفاقِ طُلَّابِهِ فِي هَذا الاخْتِبارِ السَّهْلِ، فَصاحَ غاضِبًا: «وا حَسْرَتاهُ. لَقَدْ ضاعَ ما بَذَلْتُ خِلالَ الأَشْهُرِ الطِّوالِ! ما أَتْعَسَ النَّتِيجَةَ، وَما أَضْيَعَ الْجُهْدَ! تَعالَ يا «كَرْنا» فَقَدْ يُصِيبُ الْهَدَفَ سَهْمُكَ، أَوْ يُصِيبُ سَهْمُ «أَرْجُونا»، أَوْ يَدْفِنُ مُعَلِّمُكُمْ سِهامَهُ فِي الْغابَةِ، وَيُعْلِنُ عَجْزَهُ وَإِخْفاقَهُ لِلْمَلِيكِ، إِذا خابَ أَمَلُهُ فِيكُما.»

فَرَفَعَ «كَرْنا» قَوْسَهُ، وَسَدَّدَها إِلَى الْهَدَفِ، مُتَوَثِّبًا لِتَنْفِيذِ إِشارَتِهِ.

فَسَأَلَهُ الأُسْتاذُ: «ماذا تَرَى؟»

فَأَجابَهُ: «أَرَى الطَّائِرَ وَالشَّجَرَةَ يا سَيِّدِي.»

فَقالَ لَهُ أُسْتاذُهُ: «تَنَحَّ جانِبًا فَقَدْ خابَ الأَمَلُ فِيكَ.

تَعالَ يا «أَرْجُونا» وَخَبِّرْنِي أَنْتَ أَيْضًا: أَتَرَى الشَّجَرَةَ وَالطَّائِرَ وَأُسْتاذَكَ وَأَصْحابَكَ؟»

فَابْتَدَرَهُ قائِلًا:

«كَلا، لا أَرَى الطَّائِرَ وَلا الشَّجَرَةَ وَلا الْغُصْنَ، وَلا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَراكَ، بَلْ أَنا أَرَى رَأْسَ الطَّائِرِ وَحْدَهُ!»

فَقالَ «دُرُونا» بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ: «صِفْ لِيَ الطَّائِرَ.»

فَأَجابَهُ عَلَى الْفَوْرِ: «هَيْهاتَ ذَلِكَ هَيْهاتَ. إِنِّي لا أَرَى غَيْرَ رَأْسٍ.»

فَصاحَ الشَّيْخُ مُبْتَهِجًا: «أَطْلِقْ عَلَيْهِ سَهْمَكَ.»

وَسُرْعانَ ما انْطَلَقَ السَّهْمُ، فَفَصَلَ رَأْسَ الطَّائِرِ عَنْ جَسَدِهِ.

وانْدَفَعَ «دُرُونا» يُنَدِّدُ بِطُلَّابِهِ الْخائِبِينَ قائِلًا:

«ما أَشَدَّ ضَلالَكُمْ وَأَوْفَرَ غَباوَتَكُمْ! أَلَمْ أُخْبِرْكُمْ أَنْ إِصابَةَ الْهَدَفِ لا تُتاحُ إِلَّا لِمَنْ يُرَكِّزُ انْتِباهَهُ فِيهِ، وَيُثَبِّتُ عَيْنَيْهِ عَلَيْهِ، فَإِذا رَأَى شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ هَدَفِهِ، خابَتْ أَحْلامُهُ، وَطاشَتْ سِهامُهُ.

خَبِّرُونِي أَيُّها الْقِرَدَةُ الْمُقَلِّدُونَ: كَيْفَ اسْتَطاعَتْ أَعْيُنُكُمْ أَنْ تَرَى شَيْئَيْنِ، بَلْهَ ثَلاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً فِي وَقْتٍ واحِدٍ؟ حَفِظَ اللهُ «أَرْجُونا» وَرَعاهُ. لَقَدْ رَأَى شَيْئًا واحِدًا وَلَمْ يُبْصِرْ سِواهُ، فَلَمْ يُخْطِئْهُ سَهْمُهُ وَلا عَداهُ.»

وَهُنا تَحَقَّقَ لِلطُّلَّابِ ضَلالُ إِجابَتِهِمْ، وَانْطَلَقُوا يُصَفِّقُونَ لِلشُّجاعِ ابْنِ «الشَّهِيدِ» فِي حَماسَةٍ مُلْتَهِبَةٍ.

أَمَّا الْفَتَى الْحَسُودُ «دُرْيُدْهانا» فَقَدْ سِيءَ وَجْهُهُ؛ فَانْتَحَى بِصاحِبِهِ «كَرْنا» جانِبًا، وَأَسَرَّ إِلَيْهِ مُسائِلًا:

«أَيُرْضِيكَ أَنْ يَخْفِضَ هَذا الْفَتَى مِنْ قَدْرِنا وَيَغْلُبَنا عَلَى أَمْرِنا! تُرَى كَيْفَ وُفِّقَ إِلَى إِجابَتِهِ السَّدِيدَةِ؟ إِنَّ «دُرُونا» يَخْتَصُّهُ بِعَطْفِهِ وَعِنايَتِهِ؛ فَهَلْ تُراهُ لَقَّنَهُ الإِجابَةَ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ الاخْتِبارَ؟»



فَأَجابَهُ «كَرْنا»: «كَلا لا تُسِئِ الظَّنَّ بِأُسْتاذِنا أَيُّها الأَمِيرُ، وَمَعاذَ اللهُ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحِيلَةِ.

كُنْ عَلى ثِقَةٍ أَنْ «أَرْجُونا» قَدْ فازَ عَلَيْنا بِجَدارَةٍ وَعَدْلٍ.

وَلَكِنْ صَبْرًا، فَلَنْ يَرْبَحَ فِي الْمُباراةِ التَّالِيَةِ.»

وَضاعَفَ «كَرْنا» — مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — عِنايَتَهُ وَاهْتِمامَهُ، وَراحَ يُواصِلُ التَّدْرِيبَ نَهارًا، وَمُطالَعَةَ الْكُتُبِ لَيْلًا، لِيَتَعَرَّفَ مُخْتَلِفَ الأَسْلِحَةِ.

وَكانَتْ حَرارَةُ الشَّمْسِ لا تُعَوِّقُهُ عَنْ مُواصَلَةِ التَّمْرِينِ. وَكانَ يُؤْثِرُ التَّعَبَ عَلَى الرَّاحَةِ فِي سَبِيلِ الْفَوْزِ بِطِلْبَتِهِ، وَيَسْهَرُ اللَّيْلَ وَإِخْوانُهُ نِيامٌ.

وَهَكَذا امْتَلأَتْ نَفْسُهُ الطَّاهِرَةُ بِما بَثَّهُ الأَمِيرُ الْحَسُودُ فِيها مِنْ سُمُومٍ وَأَحْقادٍ، وَأَفْعَمَ قَلْبَهُ النَّقِيَّ بِما غَرَسَهُ مِنْ بُغْضٍ وَكَراهِيَةٍ لأُسْرَةِ «الشَّهِيدِ» الْكَرِيمَةِ.

الفصل الثاني

قَصْرُ الْهَلاكِ

(١) بَعْدَ سَنَواتٍ ثَلاثٍ

وَمَضَتْ عَلَى «دُرُونا»: مُعَلِّمِ الرِّمايَةِ ثَلاثُ سَنَواتٍ — بَذَلَ خِلالَها كُلَّ ما فِي وُسْعِهِ مِنْ بَراعَةٍ وَخِبْرَةٍ وَجُهْدٍ — فِي تَعْلِيمِ الأُمَراءِ وَتَدْرِيبِهِمْ.

وَاخْتَصَّ «أَرْجُونا» بِمَوْفُورِ عَطْفِهِ وِرِعايَتِهِ، كَما اخْتَصَّهُ «أَرْجُونا» بِصادِقِ إِخْلاصِهِ وَمَوَدَّتِهِ.

فَلَمَّا اكْتَمَلَتْ مَواهِبُ طُلَّابِهِ، وَأَصْبَحُوا أَهْلًا لِتَحْقِيقِ ما أَعَدَّهُمْ لَهُ، ذَهَبَ إِلَى «بِهِشْما» وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِما كانَ يُضْمِرُهُ فِي نَفْسِهِ، فَلَقِيَ مِنْهُ أَكْرَمَ تَأْييدٍ.

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ النَّاسِكُ إِلَى نُصْرَةِ الْمَلِكِ، جَمَعَ طُلَّابَهُ وَقالَ:

«لَقَدْ بَذَلْتُ فِي تَعْلِيمِكُمْ جُهْدِي، وَلَمْ أُقَصِّرْ — خِلالَ هَذِهِ السَّنَواتِ الثَّلاثِ فِي إِعْدادِكُمْ لِخَوْضِ الْمَعارِكِ الْحاسِمَةِ، وَتَدْرِيبِكُمْ عَلَى مُخْتَلِفِ الأَسْلِحَةِ الْفاتِكَةِ، وَإِمْدادِكُمْ بِكُلِّ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ قادَةُ الْحَرْبِ مِنْ بارِعِ الأَسالِيبِ، وَمُبْتَكَرِ الْخُطَطِ الْكَفِيلَةِ بِالظَّفَرِ عَلَى الْعَدُوِّ وَقَهْرِهِ، وَتَفْرِيقِ ما تَجَمَّعَ مِنْ حَشْدِهِ، وَالانْقِضاضِ عَلَيْهِ وَمُباغَتَتِهِ (مُفاجَأَتِهِ) فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ، كَما يُباغِتُ الْقَضاءُ مِنْ يُرِيدُهُ بِالتَّواءِ (الْهَلاكِ). وَقَدْ عَلَّمْتُكُمْ — طَوالَ هَذِهِ الأَعْوامِ الثَّلاثَةِ — لَمْ أَبْتَغِ عَلَى ذَلِكُمْ جَزاءً وَلا شُكُورًا.

وَقَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تُبادِلُونِي جَمِيلًا بِجَمِيلٍ، وَإِحْسانًا بِإِحْسانٍ. واعْلَمُوا أَنَّنِي لِهَذا الْيَوْمِ أَعْدَدْتُكُمْ وادَّخَرْتُكُمْ. فَلا تَتَوانَوْا فِي جَمْعِ جُمُوعِكُمْ، وَحَشْدِ أَعْوانِكُمْ، لِتَأْدِيبِ مَلِكِ «الْبَنْغالِ» عَلَى ما أَسْلَفَهُ إِلَى أُسْتاذِكُمْ مِنْ غَدْرٍ وَإِهانَةٍ، وَما أَلْحَقَهُ بِهِ مِنْ زِرايَةٍ وَمَهانَةٍ.»

(٢) الْقائِدُ الْمِنْهَزِمُ

وَما إِنْ سَمِعَ الأُمَراءُ خِطابَ أُسْتاذِهِمْ، حَتَّى الْتَهَبَتْ حَماسَتُهُمْ لِنُصْرَتِهِ، وَحَشَدُوا أَنْصارَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ؛ وَشَدُّوا — إِلَى مَرْكَباتِهِمُ الْحَرْبِيَّةِ — جِيادَهُمْ، وانْدَفَعُوا يَتَسابَقُونَ إِلَى حاضِرَةِ «الْبَنْغالِ».

وَما زالُوا يَجِدُّونَ فِي السَّيْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، حَتَّى بَلَغُوا حُدُودَ الْمَمْلَكَةِ، فَدَخَلُوها، بَعْدَ أَنْ أَوْهَمُوا حُرَّاسَها أَنَّهُمْ قَدِمُوا لِتَحِيَّةِ مَلِكِ «الْبَنْغالِ».

وَما إِنْ بَلَغُوا حاضِرَةَ الْبِلادِ حَتَّى يَمَّمُوا ساحَةَ الْقَصْرِ، وَقَدْ شَهَرُوا أَسْلِحَتَهُمْ وَأَعَدُّوا قِسِيَّهُمْ، مُسْرِعِينَ لِمُباغَتَةِ «دُرُوپادا» وَأَسْرِهِ، قَبْلَ أَنْ يَفْطِنَ إِلَى مَكِيدَتِهِمْ فَيُؤَلِّبَ حَرَسَهُ عَلَيْهِمْ.

وَلَكِنَّ حِيلَتَهُمْ لِسُوءِ حَظِّهِمْ — لَمْ تَجُزْ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَدْرَكَ غايَتَهُمْ مُنْذُ سَمِعَ بِمَقْدَمِهِمْ، فَأَسْرَعَ بِاسْتِدْعاءِ جَيْشِهِ لِلِقائِهِمْ، وَرَدِّ عُدْوانِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذُوه عَلَى غِرَّةٍ.

وَكانَ أَبْناءُ «الضَّرِيرِ» فِي مُقَدِّمَةِ الْجَيْشِ الْمُغِيرِ؛ وَكانَ الْمَرَحُ وَالاسْتِخْفافُ وَالْفَوْضَى بادِيَةً عَلَيْهِمْ.

وَكانَ قائِدُهُمْ «دُرْيُدْهانا» وَصَفِيُّهُ «كَرْنا» غَيْرَ مُكْتَرِثَيْنِ بِأَعْدائِهِمْ، كَأَنَّما حَسِبُوا الْحَرْبَ نُزْهَةً مَرِحَةً لا جَحِيمًا مُسَعَّرَةً. وَتَمادَى بِهِمُ الْغُرُورُ، فانْطَلَقُوا يَعْبَثُونَ وَيَمْرَحُونَ. وَيَنْدَفِعُونَ إِلَى الْقَصْرِ فِي غَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلا إِحْكامٍ.

وَرَأَى «أَرْجُونا» ما يَسُودُ جَيْشَ أَبْناءِ عَمِّهِ مِنْ الْخَلَلِ وَالْفَوْضَى. فَأَيْقَنَ أَنَّ الْهَزِيمَةَ لاحِقَةٌ بِهِمْ لا مَحالَةَ، فَرَأَى أَنَّ واجِبَ الْحَزْمِ يَقْتَضِيهِ أَنْ يَتَرَيَّثَ (يَتَمَهَّلَ) مُحْتَفِظًا بِجَيْشِهِ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ جَلِيَّةَ الأَمْرِ، وَتَسْنَحَ لَهُ الْفُرْصَةُ لِقَهْرِ الْعَدُوِّ.

وَظَلَّ يَرْقُبُ الْمَعْرَكَةَ فِي يَقَظَةٍ وانْتِباهٍ. فَلَمْ يَلَبَثْ أَنْ تَحَقَّقَتْ ظُنُونُهُ.

وَلا عَجَبَ فِي ذَلِكَ، فَقَدْ كانَ جَيْشُ «دُرُوپادا» عَلَى أَتَمِّ أُهْبَةٍ، وَأَكْمَلِ دُرْبَةٍ، فَلَمْ يَثْبُتِ الْغُزاةُ أَمامَ هَجْمَتِهِ الْخاطِفَةِ، وَضَرَباتِهِ الْمُسَدَّدَةِ، وَطَعَناتِهِ الْمُوَفَّقَةِ.

وَسُرْعانَ ما دَبَّ الْفَزَعُ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَتَفَشَّى الْخَلَلُ صُفُوفَ أَبْناءِ «الضَّرِيرِ» فَلاذُوا بِالْفِرارِ، بَعْدَ أَنْ خابَ مَسْعاهُمْ، وَجُرِحَ قائِدُهُمْ.

(٣) الْقائِدُ الْمُنْتَصِرُ

وَهُنا تَحَرَّكَ جَيْشُ «أَرْجُونا» مُنْدَفِعًا إِلَى الأَمامِ فِي ثَباتٍ وَقُوَّةٍ وَنِظامٍ، وَمَهارَةٍ وَدُرْبَةٍ وَإِحْكامٍ، يَقُودُهُمْ «أَرْجُونا» إِلَى النَّصْرِ، وَإِلَى جانِبَيْ جَوادِهِ شَقِيقاهُ التَّوْأَمانِ، يَتَقَدَّمُهُمْ أَخُوهُمُ الرَّابِعُ «بِهْما» لِيَفْسَحَ أَمامَهُمُ الطُّرُقاتِ، فاتِكًا بِكُلِّ مَنْ يَعْتَرِضُ سَبِيلَ الْغُزاةِ الْفاتِحِينَ، مُؤَجِّجًا الْحَماسَةَ فِي صُدُورِ الْجَيْشِ الْمُظَفَّرِ.



وانْدَفَعَ الْجَيْشُ وَراءَ قائِدِهِ الْعَظِيمِ، كَما يَنْدَفِعُ السَّيْلُ الْجارِفُ لا يَصُدُّهُ عَنْ سَبِيلِهِ شَيْءٌ.

يا لَها مَعْرَكَةً هائِلَةً لَوْ شَهِدْتَها — أَيُّها الصَّبِيُّ الْعَزِيزُ — لَرَأَيْتَ ما يُبْهِرُكَ مِنْ إِقْدامِ «أَرْجُونا» وَشَجاعَتِهِ، وَقُوَّتِهِ وَبَراعَتِهِ، وَحُسْنِ رِمايَتِهِ؛ واسْتَوْلَى عَلَيْكَ الْعَجَبُ والإِعْجابُ

مَعًا، وَهُوَ ثابِتٌ كالطَّوْدِ (الْجَبَلِ) يَصُولُ كَما يَصُولُ الأَسَدُ، يَبْدُو — لِطُولِ قامَتِهِ، وارْتِفاعِ هامَتِهِ (رَأْسِهِ) — كالنَّخْلَةِ الْعالِيَةِ فِي وَهَجِ الظَّهِيرَةِ (شِدَّةِ الْحَرارَةِ وَقْتَ الظُّهْرِ) يُمْطِرُ الأَعْداءَ بِسِهامِهِ، قاذِفًا مِنْ قَوْسِهِ فِي كُلِّ طَلْقَةٍ، خَمْسِينَ سَهْمًا مُسَدَّدَةً مُصْمِيَةً (مُمِيتَةً) تَنْطَلِقُ فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ، فَتُرْدِي الرَّمايا عَلَى الْفَوْرِ (تَقْتُلُ مَنْ تَرْمِيهِمْ لِلْحالِ).

فَلا عَجَبَ إِذا اسْتَوْلَى الرُّعْبُ عَلَى الأَعْداءِ، فَلَمْ يَطِيقُوا صَبْرًا عَلَى هَذا الْبَلاءِ، فَلاذُوا بِالْفِرارِ، وَتَفَرَّقُوا فِي غَيْرِ تَرَيُّثٍ وَلا نِظامٍ.

وَانْدَفَعَ مَلِكُ «الْبَنْغالِ» إِلَى «أَرْجُونا» شاهِرًا سَيْفَهُ يُحاوِلُ أَنْ يَهْوِيَ عَلَيْهِ بِضَرْبَةٍ، فابْتَدَرَهُ «أَرْجُونا» فِي سُرْعَةٍ خاطِفَةٍ بِصَيْحَةٍ أَذْهَلَتْهُ، وانْقَضَّ عَلَيْهِ انْقِضاضَ الصَّاعِقَةِ، فَخَطِفَ سَيْفَهُ مِنْ يَدِهِ وَشَهَرَهُ فِي وَجْهِهِ، وَقالَ:

«الآنَ أَصْبَحْتَ أَسِيرِي كَما تَرَى. وَلَوْ كانَ أَمْرُكَ مَوْكُولًا إِلَيَّ لأَمَّنْتُكَ عَلَى حياتِكَ، وَلَكِنْ هَيْهاتَ، فَإِنَّ حياتَكَ وَمَوْتَكَ رَهْنٌ بِمَشِيئَةِ «دُرُونا»؛ يَعْفُو عَنْكَ إِذا شاءَ، أَوْ يَبْعَثُ بِكَ إِلَى عالَمِ الْفَناءِ.»

(٤) جَزاءُ الْعُقُوقِ

وَما إِنْ سَمِعَ «دُرُوپَادَا» بِاسْمِ النَّاسِكِ الْعَظِيمِ حَتَّى سِيءَ وَجْهُهُ وامْتُقِعَ، وَزادَ اضْطِرابُهُ وَفُجِعَ، لَقَدْ رَأَى فَجْأَةً صَدِيقَهُ الْقَدِيمَ الَّذِي تَنَكَّرَ لِصَداقَتِهِ، وَعَزَفَ عَنْ مَوَدَّتِهِ. يا لَها مُفاجَأَةً هائِلَةً، أَدْخَلَتْ مِنَ الْبَهْجَةِ عَلَى قَلْبِ النَّاسِكِ، قَدْرَ ما أَدْخَلَتْ مِنَ الْغَمِّ عَلَى قَلْبِ عَدُوِّهِ الْغادِرِ، فَأَذَلَّتْ كِبْرِياءَهُ وَغُرُورَهُ، وَبَدَّلَتْ صَلَفَهُ خَجَلًا، وَتَهَوُّرَهُ نَدَمًا، فَحَنَى رَأْسَهُ مُطْرِقًا بِجَبِينِهِ إِلَى الأَرْضِ، لا يَدْرِي كَيْفَ يَعْتَذِرُ عَمَّا أَسْلَفَهُ لِصاحِبِهِ مِنْ إِساءَةٍ وَعُقُوقٍ، واسْتِهانَةٍ بِما يَقْتَضِيهِ واجِبُ الصَّداقَةِ مِنْ حُقُوقٍ. وَتَحَيَّرَ الْمَلِكُ وارْتَبَكَ، فَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَعْتَذِرُ عَنْ جُرْمِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يُسَوِّغُ غَدْرَهُ بِصَدِيقِ طُفُولَتِهِ، بَعْدَ أَنْ عاهَدَهُ مُنْذُ نَشْأَتِهِ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالْوَفاءِ. وَإِنَّهُ لَفِي حَيْرَتِهِ وارْتِباكِهِ، إِذِ ابْتَدَرَهُ «دُرُونا» قائِلًا: «لا عَلَيْكَ يا «دُرُوپَادَا». هَدِّئْ مِنْ رَوْعِكَ (قَلْبِكَ) — أَيُّها الصَّدِيقُ الْقَدِيمُ — واعْلَمْ أَنَّنِي لَنْ أُفَكِّرَ فِي قَطْعِ رَأْسِكَ وَإِخْمادِ أَنْفاسِكَ. وَقَلَّ لَكَ ذَلِكَ جَزاءً أَيُّها الْمُتَكَبِّرُ الْجاحِدُ النَّاكِثُ بِالْعَهْدِ. اطْمَئِنَّ بالًا، فَإِنَّ الضَّغِينَةَ والانْتِقامَ لَيْسا مِنْ شِيَمِ الْكِرامِ حَسْبِي أَنْ أُعامِلَكَ بِما أَخَذْتَ

بِهِ نَفْسَكَ — مُنْذُ سَنَواتٍ ثَلاثٍ — مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سَنَنْتَها وَاتَّبَعْتَها، وَشَرِيعَةً أَنْتَ شَرَعْتَها وارْتَضَيْتَها. لَقَدْ رَأَيْتَ — وَرَأْيُكَ الْحَقُّ — أَنَّ مَنْ كانَ مِثْلَكَ مِنَ الْمُلُوكِ؛ لا يَرْتَضِي صَداقَةَ فَقِيرٍ مِثْلِي صُعْلُوكٍ.

الرَّأْيُ ما تَرَى. فَإِنَّ الصَّداقَةَ الْحَقَّ لا تَكُونُ إِلَّا بَيْنَ الأَكْفاءِ وَالأَنْدادِ. فَكَيْفَ أَسْتَرِدُّ صَداقَتَكَ، وَأَسْتَعِيدُ مَوَدَّتَكَ؟ لا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا أَنْ تُشارِكَنِي فِي الْفَقْرِ وَالصَّعْلَكَةِ، أَوْ أُشارِكَكَ فِي الْغِنَى وَأُقاسِمَكَ الْمَمْلَكَةَ. أَمَّا الأُولَى فَتَأْباها وَلا تَرْضاها. وَأَمَّا الثَّانِيَةُ، فَهِيَ أَهْوَنُ الشَّرَّيْنِ، وَأَخَفُّ الضَّرَرَيْنِ. وَقَدْ قَرَّرْتُ نُزُولًا عَلَى إِرادَتِكَ، وَرَغْبَةً فِي الاحْتِفاظِ بِصَداقَتِكَ، أَنْ تَكُونَ مَلِكًا عَلَى نِصْفِ الْمَمْلَكَةِ، وَأَكُونَ مَلِكًا عَلَى نِصْفِها الآخَرِ. لِنُصْبِحَ مُنْذُ الْيَوْمِ مَلِكَيْنِ مُتَكافِئَيْنِ. وَمَنْ يَدْرِي فَلَعَلَّنا نَعُودُ بَعْدَ قَلِيلٍ — كَما كُنَّا — صَدِيقَيْنِ مُتَآلِفَيْنِ وَخَلِيلَيْنِ مُتَحابَّيْنِ.» وَلَمْ يَجْرُؤِ الْمَلِكُ عَلَى دَفْعِ هَذِهِ السُّخْرِيَةِ الْقاتِلَةِ، فاحْتَمَلَها عَلَى مَضَضٍ. وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا (مَفَرًّا) مِنَ الإِذْعانِ لِحُكْمِهِ الْقاهِرِ، والتَّظاهُرِ بِقَبُولِهِ وَالرِّضَى بِهِ عَنْ طِيبِ خاطِرٍ، بِرَغْمِ ما يَفِيضُ بِهِ قَلْبُهُ مِنْ ضَغِينَةٍ وَحَسَدٍ. وَسُرْعانَ ما أَصْبَحَ «دُرُوپَادَا» مَلِكًا عَلَى النِّصْفِ الْجَنُوبِيِّ الَّذِي يَقَعُ جَنُوبَ نَهْرِ «الْكَنْجِ»، كَما أَصْبَحَ النَّاسِكُ مَلِكًا عَلَى النِّصْفِ الشَّمالِيِّ.

(٥) نَشِيدُ النَّصْرِ

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلائِلَ، وَدَّعَ النَّاسِكُ تَلامِيذَهُ الْبَرَرَةَ الأَوْفِياءَ شاكِرًا لَهُمْ ما أَسْدُوهُ إِلَيْهِ مِنْ صَنِيعٍ. وَعادَ الأُمَراءُ وَقُلُوبُهُمْ تَفِيضُ أَسًى وَحُزْنًا لِفِراقِ أُسْتاذِهِمُ الْعَظِيمِ، ذاكِرِينَ ما نَعِمُوا بِهِ فِي صُحْبَتِهِ مِنْ أَيَّامٍ مَرَّتْ. كَما تَمَرُّ الأَحْلامُ، وَقَدْ أَيْقَنُوا أَنْ زَمَنَ الدِّراسَةِ السَّعِيدَ قَدِ انْقَضَى، وَخَلَّفَ وَراءَهُ حَياةً مَمْلُوءَةً بِالتَّبِعاتِ الْجِسامِ. وَعَقَدَ الْجَيْشُ الظَّافِرُ لِواءَ النَّصْرِ لِقائِدِهِ «أَرْجُونا» الْعَظِيمِ؛ مُرَدِّدًا — فِي أَثْناءِ عَوْدَتِهِ — النَّشِيدَ التَّالِي:

يا قاهِرَ الأَبْطالِ وَفاتِحَ «الْبَنْغالِ»
لَكَ الْمَزايا الْباهِرَهْ والْعَزَماتُ الْقاهِرَهْ
وَصَوْلَةُ الأُسُودِ وَشَرَفُ الْجُدودِ

***

الْـقـــائِدُ الْـبَسَّـامُ   أَمِـيرُنا الْمِقْــدامُ
سِـهامُـهُ مُـشْــتَبِكَـهْ   تُضِيءُ وَسْطَ الْمَعْرَكَهْ
وَهْـوَ مَـدِيدُ الْـقـامَـهْ   مُـشْـرِقُ الابْـتِسامَــهْ
كَالنَّـخْـلَـةِ الْـكَــبِيرَهْ   فِـي وَهَـجِ الظَّــهِيرَهْ
فِـيها جَـنْـيُّ الرُّطَـبِ   مِـثْـلُ عُـقُـودِ الذَّهَــبِ
تَـعْـلُـو عَـلَـى الأَشْـجـارِ   فِـي غَـيْرِ ما اسْـتِكْبارِ

***

يـا قـاهِـرَ الأَبْــطـالِ   وَفـاتِــحَ «الْـبَـنْـغـالِ»
لَـكَ الْـمَـزايـا الْـباهِـرَهْ   وَالْـعَـزَمـاتُ الْـقـاهِـرَهْ
وَصَـــــوْلَــةُ الأُسُــودِ   وَشَــــرَفُ الْـجُـــدُودِ

***

الْـقـائِـدُ الـشُّـجـــاعُ   أَمِــيرُنـا الْـمُــطـاعُ
أَمِـــيرُنـا «أَرْجُـونـا»   حَـقَّـقْ مـا تَـرْجــونـا
بِـمْـثِـلِـهِ عَـزَّ الْـوَطَــنْ   عَـلَـى الْـعَـوادِي وَالْـمِحَنْ

***

خَـمْسُـونَ سَـهْـمًا تَـرْمِي   أَعْــداءَهُ فَـتُـصْـمِــي
يُـطْـلِـقُـها كالـزَّوْبَعَــهْ   مِــنْ قَـوْسِـهِ مُـجَمَّـعَـهْ
تُـباغِـتُ الـــرَّمــايـا   بِـعـاجِـلِ الْـمَــنـايـا

***

يـا قـاهِـرَ الأَبْـطـــالِ   وَفـاتِـحَ «الْـبَـنْـغـالِ»
لَـكَ الْـمَـزايـا الْـباهِـرَهْ   والْـعَـزَمـاتُ الْـقـاهِـرَهْ
وَصَــوْلَــةُ الأُسُــــودِ   وَشَــــرَفُ الْـجُــدودِ

(٦) الْغاضِبانِ

وَكانَ «دُرْيُدْهانا» و«كَرْنا» يَسِيرانِ فِي مُؤَخَّرَةِ الْجَيْشِ الظَّافِرِ وَيَسْتَمِعانِ إِلَى نَشِيدِ النَّصْرِ وَقَلْباهُما يَفِيضانِ غَيْظًا وَأَلَمًا، لِما تَفَرَّدَّ بِهِ مُنافِسُهُما مِنْ نَجاحٍ وَتَوْفِيقٍ. وَهَمَسَ «دُرْيُدْهانا» فِي أُذْنِ صاحِبِهِ «كَرْنا» يُوصِيهُ بِالانْتِقامِ، فَأَجابَهُ «كَرْنا»: «لِكُلِّ شَيْءٍ أَوانٌ». ثُمَّ لَمْ يَزِيدا عَلَى ما قالاهُ شَيْئًا. وَما زالا صامِتَيْنِ حَتَّى وَصَلَ الْجَيْشُ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ «بِهِشْما»، فَرَأَى الْمُنْهَزِمانِ مِنْ حَفاوَةِ الشَّعْبِ بِقائِدِهِ الْمُنْتَصِرِ، ما ضاعَفَ مِنْ آلامِهِما، وَأَجَّجَ مِنْ أَضْغانِهِما (أَحْقادِهِما). وَكانَتْ بَشائِرُ النَّصْرِ قَد سَبَقَتْ وُصُولَ الْجَيْشِ إِلَى «هَسْناپُورا» فَشاعَتِ الْبَهْجَةُ فِي قُلُوبِ الأَهْلِينَ وَتَمَلَّكَهُمُ الْفَرَحُ، فانْدَفَعُوا يَتَسابَقُونَ إِلَى تَزْيِينِ طُرُقاتِ الْمَدِينَةِ وَدَكاكِينِها وَبُيُوتِها بِالأَعْلامِ والأَزْهارِ والرَّياحِينِ، احْتِفاءً بِمَقْدِمِ «أَرْجُونا» وَأَشِقَّائِهِ الأَرْبَعَةِ الْمُنْتَصِرِينَ.

(٧) مُؤامَرَةٌ خَسِيسَةٌ

وَعاشَتِ الْبِلادُ مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ هادِئَةً ناعِمَةَ الْبالِ، مَوْفُورَةَ الأَمْنِ وَالرَّخاءِ. وَرَأَى الْمَلِكُ «بِهِشْما» أَنْ يُكافِئَ أَبْناءَ «الشَّهِيدِ» عَلَى ما أَحْرَزُوهُ مِنْ نَصْرٍ باهِرٍ، فَرَشَّحَ لِوِلايَةِ الْعَهْدِ كَبِيرَهُمْ «يُدِشْتِ-هِيرا»، واخْتَصَّ إِخْوَتَهُ بِما هُمْ أَهْلٌ لَهُ مِنَ الأَوْسِمَةِ والنَّياشِينِ، فَأَثارَ بِذَلِكَ — عَلَى غَيْرِ عَمْدٍ — حِقْدَ ابْنِ عَمِّهِمُ الأَكْبَرِ، وَأَلْهَبَ مِنْ غَيْظِهِ ما خَمَدَ، فَوَسْوَسَ لَهُ الشَّيْطانُ أَنْ يَغْتالَ أَبْناءَ «الشَّهِيدِ» بِأَيِّ وَسِيلَةٍ. وَتَمَلَّكَهُ حُبُّ الانْتِقامِ، فَلَمْ يُطِقْ صَبْرًا عَلَى كِتْمانِ سِرِّهِ، فَأَفْضَى إِلَى أَبِيهِ «الضَّرِيرِ» بِما يُضْمِرُهُ لأَبْناءِ عَمِّهِ مِنْ غَيْظٍ وَكَراهِيَةٍ. وَقالَ لَهُ فِيما قالَ: «لَقَدْ اخْتَصَّ جَدُّنا أَبْناءَ عَمِّنا بِأَوْسِمَةِ الْمَجْدِ وَأَلْقابِ الشَّرَفِ، وَجَعَلَ عَمِيدَهُمْ وَلِيَّ عَهْدِهِ. وَأَسْنَدَ إِلَى إِخْوَتِهِ أَعَلَى مَناصِبِ الدَّوْلَةِ، وَما زالَ يُضاعِفُ إِعْزازَهُ وَتَكْرِيمَهُ لأَبْناءِ «الشَّهِيدِ»، حَتَّى أَصْبَحُوا السَّادَةَ وَنَحْنُ الْعَبِيدُ».

وَما زالَ «دُرْيُدْهانا» يُرَدِّدُ هَذِهِ النَّغَمَةَ الْحاقِدَةَ وَأَمْثالَها، حَتَّى أَحْفَظَ أَباهُ، وَأَوْغَرَ صَدْرَهُ، وَأَلْهَبَ أَحْقادَهُ عَلَيْهِمْ، فانْزَلَقَ «الضَّرِيرُ» مَعَ وَلَدِهِ فِي طَرِيقِ الانْتِقامِ والْكَيْدِ، وَأَطالَ «الضَّرِيرُ» تَفْكِيرَهُ حَتَّى اهْتَدَى إِلَى خُطَّةٍ ماكِرَةٍ كَفِيلَةٍ بِالْقَضاءِ عَلَى أَبْناءِ عَمِّهِمْ إِلَى الأَبَدِ. ثُمَّ أَفْضَى بِخُطَّتِهِ إِلَى وَلَدِهِ بَعْدَ أَنْ أَوْصاهُ بِكِتْمانِها والاحْتِفاظِ بِها، حَتَّى لا



يَذِيعَ سِرُّ الْمُؤامَرةِ فَتَحْبَطَ (تُخْفِقَ) وَلا يُكْتَبُ لَها النَّجاحُ. كَما أَوْصاهُ أَنْ يَعْتَصِمَ بِالصَّبْرِ فَيَحْزِمَ أَمْرَهُ وَيَكْظِمَ غَيْظَهُ، فَلا يَتَعَجَّلَ بِإِظْهارِ عَدائِهِ، وَإِعْلانِ سُخْطِهِ، وَنَصَحَهُ أَنْ يُخْفِيَ سِرَّهُ عَنْ كُلِّ إِنْسانٍ حَتَّى عَنْ صَفِيِّهِ الْمُخْلِصِ «كَرْنا» لِما يَعْرِفانَهُ عَنْهُ مِنْ إِيثارِ الصَّراحَةِ وَالْخَيْرِ، وَبُغْضِ الْوَقِيعَةِ وَالْخَدِيعَةِ، وَتَرَفُّعِهِ عَنْ أَسالِيبِ الْخِيانَةِ والْغَدْرِ.

(٨) مِهْرَجانُ «بَنارِسَ»

وَسُرْعانَ ما ذاعَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ مَدِينَةَ «بَنارِسَ» الْمُقَدَّسَةَ سَتَشْهُدُ مِهْرَجانًا حافلًا بِكُلِّ مَباهِجِ الْحَياةِ، وَكانَ مُدَبِّرُو الْمُؤامَرَةِ يَتَفَنَّنُونَ فِي التَّشْوِيقِ إِلَى هَذا الْمِهْرَجانِ، فَلَمْ يُطِقْ «أَرْجُونا» صَبْرًا عَلَى التَّخَلُّفِ عَنْ مُشاهَدَةِ الِاحْتِفالِ الْعَظِيمِ، وَبِذَلِكَ أَتاحَ لابْنِ عَمِّهِ فُرْصَةَ الانْتِقامِ، وَهَيَّأَ لَهُ الْوَسِيلَةَ الَّتِي أَعَدَّها لِإِنْجازِ مُؤامَرَتِهِ. فَأَسَرَعَ «دُرْيُدْهانا» إِلَى جَدِّهِ يُبْلِغُهُ رَغْبَةَ «أَرْجُونا» فِي مُشارَكَتِهِمْ فِي رِحْلَتِهِمْ إِلَى «بَنارِسَ» لِيَشْهَدَ مَعَهُمْ مِهْرَجانَها الْكَبِيرَ. فَأَظْهَرَ الْجَدُّ ارْتِياحَهُ لِهَذا الاقْتِراحِ، وَدَعا لِحَفَدَتِهِ بِالتَّوْفِيقِ فِي حَلِّهِمْ وَتَرْحالِهِمْ.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلائِلَ، تَأَهَّبَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» لِلسَّفَرِ إِلَى «بَنارِسَ» مَعَ أَبْناءِ «الضَّرِيرِ» دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا ما دَبَّرَهُ لَهُمْ عَمُّهُمْ وابْنُهُ مِنْ غَدْرٍ، وَما بَيَّتاهُ مِنْ مَكْرٍ. فَأَخَذَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ حاشِيَةِ الْقَصْرِ، فَأَعَدُّوا لِرِحْلَتِهِمْ كُلَّ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ مُعِدَّاتٍ، وَسارُوا فِي حَشْدٍ مِنْ أَنْصارِهِمْ يَحْمِلُونَ حَقائِبَهُمُ الْمَمْلُوءَةَ بِالنَّفائِسِ وَالْحُلِيِّ، وَغَيْرِها مِنَ الأَحْجارِ الْكَرِيمَةِ، وَأَعَدُّوا خَمْسَ حُلَلٍ مُلُوكِيَّةٍ فاخِرَةٍ لِيَظْهَرُوا بِالْمَظْهَرِ الْمَلَكِيِّ اللائِقِ بِهِمْ. وَقَدْ أَرْسَلُوا رَئِيسَ الْقَصْرِ «پارُوشانا» مِنْ قَبَلِهِمْ، لِيَخْتارَ لَهُمْ قَصْرًا فَخْمًا فِي «بَنارِسَ» يُقِيمُونَ فِيهِ خِلالَ مُدَّةِ الِاحْتِفالِ. وَكانَ هَذا الْوَزِيرُ لِسُوءِ الْحَظِّ خَبِيثَ النِّيَّةِ، مَوْفُورَ الدَّهاءِ فاسِدَ الطَّوِيَّةِ، فَلَمَّا اتَّصَلَ بِهِ «دُرْيُدْهانا» اسْتَطاعَ أَنْ يَكْسِبَهُ إِلَى جانِبِهِ بِما غَمَرَهُ بِهِ مِنْ مالٍ، وَما مَنَّاهُ بِهِ مِنْ آمالٍ.

فاتَّفَقَ الْغادِرانِ عَلَى أَنْ يَقُومَ الْوَزِيرُ بِبِناءِ قَصْرٍ لِلأُمَراءِ مِنْ خَشَبِ الصَّمْغِ، وَهُوَ مِنْ أَسْرَعِ الْمَوادِ قابِلِيَّةً لِلالْتِهابِ، يَتَحَوَّلُ — مَتَى اشْتَعَلَ — جَبَلًا مِنَ النَّارِ، وَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالآبَنُوسِ فِي قابِلِيَّةِ الاحْتِراقِ وَسُرْعَةِ الاشْتِعالِ، ما إِنْ تَمَسُّهُ النَّارُ حَتَّى يَلْتَهِبَ الْتِهابًا، وَيَتَحَوَّلَ فِي الْحالِ بُرْكانًا ثائِرًا فِي لَحَظاتٍ، وَقَدْ أَوْصاهُ «دُرْيُدْهانا» أَنْ يَمْلأَ الْقَصْرَ بِأَثْمَنِ الأَثاثِ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِما يُنْفِقُ فِي تَأْثِيثِهِ مِنْ مالٍ طائِلٍ، لأَنَّ أَباهُ سَيَمْنَحُهُ أَضْعافَ ما أَنْفَقَ، وَيَغْمُرُهُ بِثَرْوَةٍ لا يَحْلُمُ بِها.

فَتَغَلَّبَ الْجَشَعُ عَلَى ضَمِيرِ «پارُوشانا» فَلَم يُذِعِ السِّرَّ الَّذِي اسْتَودَعَهُ، أَو يَنْبِسْ بِكَلِمَةٍ عَنْ مُؤامَرَتِهِ الدَّنِيئَةِ، وَذَهَبَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى «بَنارِسَ» حَيْثُ نَفَّذَ كُلَّ ما أَرادَهُ الأَمِيرُ. وَكانَتْ خِطَّةُ «دُرْيُدْهانا» — الَّتِي ابْتَكَرَها الضَّرِيرُ، وَعاوَنَهُ فِيها الْوَزِيرُ الآثِمُ «پارُوشانا»



– بَعِيدَةَ الْغَوْرِ مُحْكَمَةَ التَّدْبِيرِ لا سَبِيلَ إِلَى إِخْفاقِها. وَلَولا عِنايَةُ اللهِ الَّتِي أَلْهَمَتْ «فِيدُورا» خَالَ أَبْناءِ «الشَّهِيدِ» لَقُضِيَ عَلَيْهِم بِالفَنَاءِ.

وَكانَ «فِيدُورا» رَجُلًا رَزِينًا عاقِلًا، يَجْمَعُ إِلَى صِدْقِ الْفَراسَةِ، رَجاحَةَ الْعَقْلِ وَطَهارَةَ الْقَلْبِ، وَكانَ الشَّكُّ يُساوِرُهُ فِي «دُرْيُدْهانا» وَيَتَوَجَّسُ مِنْهُ شَرًّا، وَلا يَأْمَنُ جانِبَهُ، فَظَلَّ يَرْقُبُ حَرَكاتِهِ دُوْنَ أَنْ يُشْعِرَهُ بِمُراقَبَتِهِ، حَتَّى اهْتَدَى إِلَى سِرِّهِ الْخَفِيِّ، وَعَرَفَ دَقائِقَ ما أَبْرَمَ مِن خُطَّةٍ ماكِرَةٍ، فَلَمَّا حانَ مَوْعِدُ السَّفَرِ اخْتَلَى بِأَوْلادِ أُخْتِهِ، وَكاشَفَهُم بِما يَسْتَقْبِلُهُم مِن خَطَرٍ داهِمٍ بَيَّتَهُ لَهُم ابْنُ عَمِّهِمْ «دُرْيُدْهانا» لِلقَضاءِ عَلَى حَياتِهِم، وَلَكِنَّ خالَهُم لَم يَتَرَدَّدْ بِرَغْمِ ذَلِكَ فِي نُصْحِهِمْ بِالسَّفَرِ، حَتَّى لا يُحْرَمُوا مُشاهَدَةَ مِهْرَجانِ «بَنارِسَ»

الْعَظِيمِ، مُتَظاهِرِينَ بِجَهْلِ ما دَبَّرَهُ لَهُم ابْنُ عَمِّهِمُ الْغَادِرُ، وَوَعَدَهُمْ بِأَن يَخْبِرَهُم بِما تَتَفَتَّقُ عَنْهُ حِيلَتُهُ فِي الْوصُولِ إِلَى نَجاتِهِم عِنْدَ اقْتِرابِ الْقَضاءِ الَّذِي يَتَهَدَّدُهُم. فَوَعَدُوهُ بِكِتْمانِ ما سَمِعُوهُ مِنْهُ.



وَخَرَجَتِ الْمَدِينَةُ بِأَسْرِها لِتُشَيِّعَ الإِخْوَةَ الْخَمْسَةَ الظَّافِرِينَ إِلَى رِحْلَتِهِمُ الْمُبارَكَةِ. فَكانَتِ الأَزْهارُ تَتَناثَرُ عَلَيْهِمْ مِن كُلِّ مَكانٍ، وَالْوُرُودُ وَالرَّياحِينُ تُلْقَى لِتَحِيَّتِهِم، تُجاوِبُها أَصْواتُ الْفَرَحِ والابْتِهاجِ، وَصَيْحاتُ الإِعْجابِ وَالتَّقْدِيرِ لَهُمْ. وَقَدْ كانَ «دُرْيُدْهانا» جَذلانَ (فَرْحانَ) عَلَى خِلافِ ما عُرِفَ عَنْهُ مِنْ تَجَهُّمٍ وَعُبُوسٍ، فَراحَ يُقِيمُ حَفَلاتٍ راقِصَةً،

ابْتِهاجًا بِما وُفِّقَ إِلَيْهِ، مُعْتَقِدًا أَنَّ خُطَّتَهُ فِي طَرِيقِها إِلَى النَّجاحِ، وَكانَ يَضْحَكُ وَيَصِيحُ مُغَنِّيًا صاخِبًا وَهُوَ راكِبٌ بِجوارِهِمْ. وَقَدْ صَحِبَ الْمَوْكِبَ جَدُّهُمْ «بِهِشْما» الْعَجُوزُ إِلَى بابِ الْمَدِينَةِ تُقِلُّهُ مَرْكَبَتُهُ الذَّهَبِيَّةُ يَجُرُّها ثَوْرانِ أَسْودانِ. وَلَمَّا حانَ وَقْتُ الْوَداعِ غَلَبَهُ الْحَنانُ الأَبَوِيُّ، فَبَكَى وَهُوَ يُقَبِّلُهُمْ مُتَمَنِّيًا لَهُمُ الْهَناءَةَ والسَّعادَةَ وَالْغِبْطَةَ، داعِيًا اللهَ أَنْ يَعُودُوا بِخَيْرٍ جَمِيعًا بَعْدَ انْقِضاءِ الِاثْنَى عَشَرَ شَهْرًا وَهِيَ مُدَّةُ الاحْتِفالِ، وَقَدْ صَحِبَ الأُمَراءَ خالُهُمْ «فِيدُورا» مَسافَةً طَوِيلَةً خارِجَ الْمَدِينَةِ، وَقَبْلَ أَنْ يَعُودَ، هَمَسَ فِي أُذُنِ «يُدِشْتِ-هِيرا» عَمِيدِ أُسْرَةِ «الشَّهِيدِ»، بِصَوْتٍ خافِتٍ، وَبِلُغَةٍ يَفْهَمُها كِلاهُما وَحْدَهُما: «عَلَيْكُمْ بِالْحِرْصِ وَمُضاعَفَةِ الِانْتِباهِ والْيَقَظَةِ لَيْلَ نَهارَ، وَأَوْصُوا حُرَّاسَكُمْ أَلَّا تَغْفُلَ أَعْيُنُهُمْ وَلا تَنامَ، وَلا تَنْسوْا أَنْ أَعْداءَكُمْ يَنْتَهِزُونَ غَفْلَةً يَتَحَيَّنُونَها مِنْكُمْ لِلْقَضاءِ عَلَيْكُمْ. وَتَبَيَّنُوا طَرِيقَ الْغابَةِ الَّذِي تَسْلُكُونَهُ إِلَى قَصْرِهِمْ فِي مَدِينَةِ «بَنارِسَ» حَتَّى لا تَضِلُّوا طَرِيقَكُمْ فِي أَثْناءِ الْعَوْدَةِ. وَمَتَى جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قِبَلِي يَحْمِلُ خاتَمِي فاسْتَقْبِلُوهُ اسْتِقْبالًا حَسَنًا، فَسَأُرْسِلُ لَكُمْ مَعَهُ آلاتٍ خاصَّةً، تَسْتَطِيعُونَ بِها حَفْرَ مَمَرٍّ تَسْلُكُونَهُ لِلْخُرُوجِ مِنَ الْقَصْرِ، إِذا اشْتَعَلَتِ النَّارُ فِي بَيْتِكُمْ، دُونَ أَنْ يَفْطُنَ إِلَيْكُمْ أَحَدٌ.

واعْلَمُوا أَنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي اسْتِقْبالِكُمْ مَتَى خَرَجْتُمْ، سَفِينَةً تِجارِيَّةً ذاتَ سارِيَةٍ حَمْراءَ فِي انْتِظارِكُمْ، وَسَتَجِدُونَها واقِفَةً عَلَى حافَةِ نَهْرِ «الْكَنْجِ».» ثُمَّ عانَقَ أَبْناءَ أُخْتِهِ مُوَدِّعًا، داعِيًا لَهُمْ بِالسَّلامَةِ وَالتَّوْفِيقِ. ثُمَّ أَدارَ «فِيدُورا» الْكَرِيمُ رَأْسَ جَوادِهِ عائِدًا.

(٩) فِي مَدِينَةِ «بَنارِسَ»

وَلَمَّا وَصَلَ الأُمَراءُ إِلَى «بَنارِسَ» اسْتَقْبَلَهُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ اسْتِقْبالًا حافِلًا، فَقَدْ كانَتْ شُهْرَتُهُمْ ذائِعَةً فِي كُلِّ مَكانٍ، وَقَدْ كانَ «پَارُوشانا» فِي شَرَفِ اسْتِقْبالِهِمْ وَوَجْهُهُ يَعْلُوهُ الْبِشْرُ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ إِلَى قَصْرٍ فاخِرٍ يَلِيقُ بِالأُمَراءِ الْعِظامِ، فاضْطَرَّ إِلَى بِناءِ قَصْرٍ كَبِيرٍ يَحُلُّونَ بِهِ عَلَى الرُّحْبِ والسَّعَةِ، وَقَدْ أَثَّثَهُ لَهُمْ بِأَثْمَنِ الرِّياشِ، وَجَمَعَ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الْجَوارِي وَالْخَدَمِ، وَما إِلَى ذَلِكَ مِنْ جالِباتِ السُّرُورِ وَباعِثاتِ الْبَهْجَةِ. فَشَكَرَ لَهُ الأُمَراءُ هِمَّتَهُ وَبَراعَتَهُ فِي تَشْيِيدِ الْقَصْرِ الْفَرِيدِ الَّذِي حَدَثَّهُمْ عَنْهُ وَشَوَّقَهُمْ إِلَيْهِ. وَلَمَّا بَلَغُوا الْقَصْرَ تَبَيَّنُوا رائِحَةَ الْقَطِرانِ وَالزَّيْتِ وَما إِلَيْهِما مِنَ الْمَوادِّ السَّرِيعَةِ الِالْتِهابِ،



بِرَغْمِ ما كانَ يَفُوحُ مِنْ جَنَباتِهِ مِنَ الْعُطُورِ الزَّكِيَّةِ الْمَبْثُوثَةِ فِي أَرْجائِهِ. وَفِي الأَيَّامِ التَّالِيَةِ زارَ الأُمَراءُ مَعابِدَ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَشاهَدُوا ما أُقِيمَ فِيها مِنَ الاِحْتِفالاتِ الدِّينِيَّةِ. وَما زالُوا يَدْرُسُونَ آثارَها وَمعاهِدَها مُتَنَقِّلِينَ مِنْ مَكانٍ إِلَى مَكانٍ حَتَّى انْقَضَى عَلَيْهِمْ أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا لَمْ يَغْفُلُوا فِي أَثْنائِها عَنْ حِراسَةِ مَسْكَنِهِمْ فِي أَثْناءِ وُجُودِهِمْ بِهِ، حَتَّى يَأْمَنُوا خَطَرَ الْحَرِيقِ. وَبَذَلُوا قُصارَى جَهْدِهِمْ فَلَمْ يُتِيحُوا الْفُرْصَةَ لأَحَدٍ مِنْ أَنْصارِ «دُرَيْدْهانا» لِيُنَفِّذَ خُطَّتَهُ.

فَلَمَّا جاءَ الشَّهْرُ الثَّانِي عَشَرَ حَضَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ خالِهِمْ «فِيدُورا» مُسْتَأْذِنًا حُرَّاسَ الْقَصْرِ فِي مُقابَلَةِ «يُدِشْتِ-هِيرا»، فَلَمَّا رَآهُ أَهْدَى إِلَيْهِ خاتَمَ خالَهُ «فِيدُورا»؛ فَعَلِمَ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِهِ، وَسَأَلَهُ عَنْ أَدَواتِ الْحَفْرِ، فَقَدَّمَها لَهُ، وَبِذَلِكَ اسْتَطاعَ الأُمَراءُ أَنْ يُنْشِئُوا مَمَرًّا طَوِيلًا تَحْتَ سَطْحِ الأَرْضِ يَصِلُ قَصْرَهُمْ بِالْغابَةِ، لِيُتِيحَ لَهُمُ النَّجاةَ مَتَى احْتَرَقَ الْقَصْرُ، فَلَمَّا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ، كانَ الْقَلَقُ قَدِ اشْتَدَّ بِـ «أَرْجُونا»، فَقالَ لِإِخْوَتِهِ:

«شَدَّ ما أَضْجَرَتْنِي هَذِهِ الْحَياةُ الْمُتَشابِهَةُ فِي «بَنارِسَ» يا إِخْوَتِي، وَيَلُوحُ لِي أَنْ حِيلَتَنا قَدْ أَعْجَزَتْ أَعْداءَنا، وَأَفْسَدَتْ خُطَّتَهُمُ الَّتِي ابْتَكَرُوها لِإِهْلاكِنا وَالتَّنْكِيلِ بِنا، فَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بالِهِمْ أَنْ يَحْرِقُوا الْقَصْرَ وَنَحْنُ خارِجَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَفَوِّتُ عَلَيْهِمُ الْغَرَضَ، وَيُنْجِي مِنْ شَبَكَتِهِمْ صَيْدَهُمْ. وَقَدْ رَأَوْا كَيْفَ تُضاعَفُ حِراسَةُ الْقَصْرِ مَتَى حَلَلْنا فِيهِ، وَلَمْ يَجِدُوا إِلَى إِحْراقِهِ سَبِيلًا. فَإِذا شِئْتُمْ أَنْ تُلْقُوا عَنْهُمْ عَناءَ الانْتِظارِ عَلَى غَيْرِ طائِلٍ، وَتُرِيحُوهُمْ مِنَ التَّفْكِيرِ فِي غَيْرِ جَدْوَى، كَما تُرِيحُونَنا مِنْ هَذِهِ الْحَياةِ التَّاعِسَةِ الْمُتَكَرِّرَةِ الرَّاتِبَةِ، فَهُناكَ وَسِيلَةٌ مَأْمُونَةٌ لِتَحْقِيقِ هَذا الْغَرَضِ، هِيَ أَنْ نُعَجِّلَ بِإِحْراقِ الْقَصْرِ بِأَيْدِينا لا بِأَيْدِي أَعْدائِنا، نُحْرِقُهُ بَعْدَ أَنْ نَخْرُجَ مِنَ الْمَمَرِّ آمِنِينَ، فَيَحْسِبَ أَعْداؤُنا أَنَّ الْقَصْرَ احْتَرَقَ مُصادَفَةً، دُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ يَدٌ، وَأَنَّنا ذَهَبْنا طُعْمَةً لِلنَّارِ، فَيَأْمَنُونَ جانِبَنا وَتَتِمُّ لَنا خَدِيعَتُهُمْ مِنْ حَيْثُ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ خَدَعُونا. وَكانَ الأُمَراءُ قَدْ ضَجِرُوا بِهَذِهِ الْحَياةِ الْقَلِقَةِ، كَما ضَجِرَ «أَرْجُونا» واشْتَدَّ حَنِينُهُمْ إِلَى وَطَنِهِمْ، وَشَوْقُهِمْ لِرُؤْيَةِ جَدِّهِمْ «بِهِشْما» وَخالِهِمْ «فِيدُورا»، فَأَقَرُّوا أَخاهُمْ «أَرْجُونا» عَلَى رَأْيِهِ، وَرَحَّبُوا بِاقْتِراحِهِ.

فَلَمَّا أَقْبَلَ الْمَساءُ أَرْسَلُوا إِلَى أَسْواقِ الْمَدِينَةِ كُلَّ مَنْ فِي الْقَصْرِ، ثُمَّ أَشْعَلُوا النَّارَ فِي مُقَدِّمَتِهِ، وانْطَلَقُوا فِي عَدْوِهِمْ مُسْرِعِينَ إِلَى الْمَمَرِّ الْعَجِيبِ. وَالْتَهَبَ الْقَصْرُ فِي لَحَظاتٍ، وارْتَفَعَ اللَّهَبُ إِلَى عَنانِ السَّماءِ، وَخَفَّ سُكَّانُ الْمَدِينَةِ — مِنْ كُلِّ مَكانٍ — لِرُؤْيَةِ الْجَحِيمِ الْمُسْتَعِرَةِ، الَّتِي لَمْ يَشْهَدُوا لَها فِي حَياتِهِمْ مَثِيلًا. وَإِنَّها لَتَعْدِلُ فِي اضْطِرامِها مِائَةَ ضِعْفٍ مِنْ وَهَجِ الشَّمْسِ فِي ساعَةِ الظَّهِيرَةِ. وَقَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّتِها واسْتِعارِها أَنْ أَحْرَقَتْ أَشِعَّتُها الرَّمْلَ والصَّخْرَ، كَما أَحْرَقَتْ أَسْرابَ الْوَحْشِ والطَّيْرِ.

وَأَسْرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ إِلَى الْقَصْرِ الْمُحْتَرِقِ واجِفَةً قُلُوبُهُمْ، زائِغَةً أَبْصارُهُمْ، مَعْقُودَةً — مِنَ الذُّعْرِ — أَلْسِنَتُهُمْ، تَتَعالَى صَيْحاتُهُمْ وَصَرَخاتُهُمْ، وَتَتَصاعَدُ أَنَّاتُهُمْ وَحَسَراتُهُمْ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ أَبْناءَ «الشَّهِيدِ» قَدْ راحُوا طُعْمَةً سائِغَةً لِلنَّارِ. عَلَى حِينِ واصَلَ الأُمَراءُ



سَيْرَهُمْ، فاجْتازُوا النَّفْقَ وَمَشَوْا — فِي الْغابَةِ — أَمْيالًا، مُسْتَرْشِدِينَ بِما مَرَّ بِهِمْ مِنْ أَمَرٍ (أَماراتٍ) وَصُوىً (عَلاماتٍ تَكُونُ فِي الطَّرِيقِ). فَقَدْ أَوْصاهُمْ خالُهُمْ أَنْ يَتَثَبَّتُوا مِنْ كُلِّ ما يَرَوْنَهُ — فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى «بَنارِسَ» — مِن أَمَرٍ وَصُوىً، حَتَّى لا يَضِلُّوا سَبِيلَهُمْ فِي عَوْدَتِهِمْ. فَلَمْ يُقَصِّرُوا فِي اتِّباعِ نَصِيحَةِ خالِهِمْ، وَراحُوا يَتَقَصَّوْنَها أَمَرَةً بَعْدَ أَمَرَةٍ، وَيَجْتازُونَها صُوَّةً بَعْدَ صُوَّةٍ، حَتَّى بَلَغُوا ضِفَّةَ النَّهْرِ، بَعْدَ أَنْ اجْتازُوا أَمَرَ الْغابَةِ

وَصُواها. وَهُنا عَرَضَتْ لَهُمْ مُشْكِلَةٌ جَدِيدَةٌ، فَلَمْ يَدْرُوا كَيْفَ يَعْبُرُونَ النَّهْرَ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ، وَيَهْتَدِيَ إِلَى مَطْوِيِّ سِرِّهِمْ. فَقَدْ كانُوا — كَما تَعْلَمُ — مِنَ النَّباهَةِ (الشُّهْرَةِ) بِحَيْثُ لا يَجْهَلُهُمْ مَنْ يَراهُمْ. وَلا سَبِيلَ إِلَى عُبُورِ النَّهْرِ بِغَيْرِ مَرْكَبٍ! وَهَيْهاتَ أَنْ يَخْفَى عَلَى صاحِبِ الْمَرْكَبِ أَمْرُهُمْ.

وَكانَتْ خُطَّتُهُمْ أَنْ يُوْهِمُوا النَّاسَ أَنَّهُمْ قَدْ ذَهَبُوا طُعْمَةً لِلنَّارِ، حَتَّى لا يَفْسُدَ تَدْبِيرُهُمْ، فَكَيْفَ يَصْنَعُونَ؟ لَمْ يَبْقَ أَمامَهُمْ إِلَّا أَنْ يَعُودُوا إِلَى الْغابَةِ، حَيْثُ يَخْتَبِئُونَ عَنِ الأَنْظارِ، رَيْثَما تُتاحُ لَهُمْ فُرْصَةٌ لِلْخَلاصِ مِنْ هَذا الْمَأْزِقِ. وَإِنَّهُمْ لَيَهُمُّونَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْغابَةِ، إِذْ لاحَتْ لَهُمُ السَّفِينَةُ الْمَنْشُودَةُ راسِيَةً فِي عُرْضِ النَّهْرِ، وَعَلَيْها السَّارِيَةُ الْحَمْراءُ. فَذَكَرَ «يُدِشْت-هِيرا» ما أَوْصاهُ بِهِ خالُهُ «فِيدُورا» — وَكانَ لِنَصِيحَتِهِ ناسِيًا — والْتَفَتَ إِلَى إِخْوَتِهِ قائِلًا: «لَنْ أَكُونَ جَدِيرًا بِثِقَتِكُمْ بَعْدَ الْيَوْمِ إِذا لَمْ تَكُنْ هَذِهِ السَّفِينَةُ هِيَ طِلْبَتَنا الَّتِي أَرْسَلَها خالُنا إِلَيْنا.» ثُمَّ صاحَ بِكَلِمَةِ السِّرِّ، فَتَلَقَّى جَوابَ الرُّبَّانِ بِما أَزالَ شَكَّهُ، وَسُرْعانَ ما أَرْسَلَ إِلَيْهِ الرُّبَّانُ قارِبًا لِيَحْمِلَهُ إِلَى السَّفِينَةِ مَعَ إِخْوَتِهِ. وَلَمْ يَكُنِ الرُّبَّانُ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — غَيْرَ ابْنِ خالِهِمْ، وَقَدْ لَبِثَ أَشْهُرًا يَنْتَظِرُ عَوْدَتَهُمْ كَما أَوْصاهُ أَبُوهُ. فَلَمَّا عَبَرَ بِهِمُ النَّهْرَ، وَدَّعَهُمْ مُتَمَنِّيًا لَهُمْ ما هُمْ جَدِيرُونَ بِهِ مِنْ نَجاحٍ وَتَوْفِيقٍ. وَما زالَ الأُمَراءُ يَنْتَقِلُونَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، حَتَّى بَلَغُوا مَدِينَةَ «إِكَّاشَكْرا» وَكانُوا قَدِ اسْتَبْدَلُوا بِثِيابِهِمْ ثِيابًا جَدِيدَةً صَنَعُوها مِنْ رَقِّ الْغَزالِ، وَعَلَّقُوا فِي أَعْناقِهِمْ عُقُودًا مِنَ الْخَرَزِ الْمُقَدَّسِ. وَكانَ شَعْرُهُمْ قَدْ تَشَعَّثَ واغْبَرَّ، وَلَوْنُ وُجُوهِهِمْ قَدْ حالَ واصْفَرَّ، فَأَعانَهُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَتَظاهَرُوا بِمَظْهَرِ وَفْدٍ مِنْ نُسَّاكِ الْبَراهِمَةِ قَدِمُوا مِنَ الْحَجِّ. وَكانَتْ سِماتُ النُّبْلِ وَأَماراتُ الْفَضْلِ تَلُوحُ عَلَى سِيماهُمْ، فَنَجَحَتْ حِيلَتُهُمْ، وَجازَتْ دَعْواهُمْ عَلَى كُلِّ مَنْ رَآهُمْ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمُ النَّاسُ يَتَبَرَّكُونَ بِهِمْ وَيَسْتَفِيضُونَ، مُلْتَمِسِينَ نُجْحَ مَطالِبِهِمْ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ، وَمُضاعَفَةِ الْعِنايَةِ بِأَمْرِهِمْ.»

وَهَكَذا عاشَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» غُرَباءَ يَتَرَقَّبُونَ رِسالَةً مِنْ خالِهِمْ، تُنِيرُ سَبِيلَ الْعَوْدَةِ إِلَى دِيارِهِمْ، وَتُيَسِّرُ لَهُمُ اسْتِرْدادَ مَنْزِلَتِهِمْ فِي «هَسْناپورا» وَطَنِهِمُ الْحَبِيبِ.

الفصل الثالث

أَمِيرَةُ الْبَنْغالِ

(١) رَسائِلُ الأَصْفِياءِ

وَفَدَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» عَلَى مَدِينَةِ «إِكَّاشَكْرا». وَما إِنِ اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمُقامُ حَتَّى جاءَتْهُمْ رِسالَةُ خالِهِمْ «فِيدُورا» وَتَبِعَتْها رَسائِلُ قَلِيلَةٌ أُخْرَى مِنْ بَعْضِ أَصْفِيائِهِمْ، تَحْمِلُ إِلَيْهِمْ أَنْباءَ «هَسْناپورا» وَطَنِهِمُ الْحَبِيبِ. فَعَلِمُوا مِن فَحْواها (مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ) أَنَّ سَوادَ النَّاسِ (جُمْهُورَهُمْ) قَدْ جازَتْ عَلَيْهِمُ الْحِيلَةُ، وَلَمْ يُساوِرْهُمُ الشَّكُّ فِي أَنَّهُمْ ذَهَبُوا طُعْمَةً سائِغَةً لِلنَّارِ فِي قَصْرِ الْهَلاكِ. وَطالَعَتْهُمُ الأَنْباءُ بِما اسْتَأْثَرَ بِهِ «دُرْيُدْهانا» مِن نُفُوذٍ وَسُلْطانٍ، وَكَيْفَ سَلَبَ نُفُوذَ أَبِيهِ وَجَدِّهِ وَأَنْصارِهِما، وَنَحَّاهُمْ عَنِ الْمُلْكِ.

(٢) مِهْرَجانُ «الْبَنْغالِ»

وَكانَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» — كَما عَلِمْتَ يَفِيضُونَ نَشاطًا وَقُوَّةً وَتَوَثُّبًا وَفُتُوَّةً. فَلَمْ يَرْتاحُوا إِلَى حَياةِ الْخُمُولِ وَالدَّعَةِ.

وَعَلِمَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» أَنْ «دُرُوپَادَا» عَدُوَّ مُعَلِّمِهِمْ «دُرُونا» قَدْ أَذاعَ فِي بِلادِ الْهِنْدِ أَنَّهُ سَيُقِيمُ فِي حاضِرَةِ مُلْكِهِ مِهْرَجانًا عَظِيمًا يَتَنافَسُ فِيهِ الرُّماةُ، لِيَخْتارَ أَوَّلَ الْفائِزِينَ زَوْجًا لابْنَتِهِ فانْطَلَقُوا مُسْرِعِينَ — فِي زِيِّ النُّسَّاكِ الَّذِي اخْتارُوهُ — إِلَى أَنْ بَلَغُوا حاضِرَةَ «الْبَنْغالِ»، فَعَلِمُوا أَنَّ الْمَلِكَ «دُرُوپَادَا» قَدْ أَعَدَّ — لِلْمُتَبارِينَ فِي مَيْدانِ الرِّمايَةِ — امْتِحانًا عَسِيرًا، فَأَمَرَ بِصُنْعِ قَوْسٍ كَبِيرَةٍ مِنْ خَشَبٍ مَتِينٍ فِي مِثْلِ صَلابَةِ الْحَدِيدِ، كَما أَمَرَ بِتَعْلِيقِ خاتَمٍ فِي طَرَفِ عَصًا طَوِيلَةٍ مُسْتَدِقَّةٍ، لِيَظَلَّ الْخاتَمُ مُعَلَّقًا فِي الْهَواءِ، مُتَرَجِّحًا لا ثَباتَ لَهُ

وَلا قَرارَ. وَجَعَلَ مِنْ شَرائِطِ النَّجاحِ فِي الْمُباراةِ أَلَّا يُقْبَلَ فِيها إِلَّا سَرِيٌّ (شَرِيفٌ) ماجِدٌ، يَجْرِي فِي عُرُوقِهِ دَمُ السِّيادَةِ وَالإِمارَةِ. وَلَنْ يَتِمَّ لَهُ الْفَوْزُ إِلَّا إِذا حَنَى الْقَوْسَ الْكَبِيرَةَ الصُّلْبَةَ، وَأَطْلَقَ مِنْها خَمْسَةَ سِهامٍ تِباعًا، لا يُخْطِئُ الْهَدَفَ مِنْها سَهْمٌ واحِدٌ.

ثُمَّ تَفَرَّقَ الْمُنادُونَ، فارْتَقَوْا سَلالِمَ عِشْرِينَ مَعْبَدًا فِي مُخْتَلِفِ أَنْحاءِ الْمَدِينَةِ، يُبَصِّرُونَ النَّاسَ بِما يَعْنِيهِمْ أَنْ يَعْرِفُوهُ عَنِ الْمُباراةِ: مَوْعِدِها وَشَرائِطِ الدُّخُولِ فِيها. فَتَهافَتَ عَلَى الْمُباراةِ السُّراةُ (الأَشْرافُ) وَالأُمَراءُ الْمُتَفَرِّدُونَ بِالْبَراعَةِ فِي فُنُونِ الرِّمايَةِ، يَحْدُوهُمُ الأَمَلُ فِي أَنْ يَفُوزُوا بِأَمِيرَةِ «الْبَنْغالِ»، الْمُتَفَرِّدَةِ بِالْغِنَى وَالطُّهْرِ والْجَمالِ.

فَلَمَّا حانَ مَوْعِدُ الْمُباراةِ، حَفَلَتِ الْمَدِينَةُ بِالْوافِدِينَ مِنْ نَظَّارَةٍ وَمُتَبارِينَ وازْدَحَمَتْ بِجُمُوعِهِمُ الأَسْواقُ، وَغَصَّتْ بِهِمُ الْمَيادِينُ. فَكانَتْ فُرْصَةً لِتَرْوِيجِ الْبَضائِعِ والسِّلَعِ، أَتاحَتْ لِتُجَّارِ الْحُلِيِّ أَنْ يَعْرِضُوا عَلَى الْوافِدِينَ نَماذِجَ ذَهَبِيَّةً مُصَغَّرَةً لِقَوْسِ الْمُباراةِ الْعَظِيمَةِ، لِيُقَدِّمَها الزَّائِرُونَ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ هَدايا لِمَنْ يُحِبُّون. وَلَمْ يُقَصِّرْ رِجالُ الشُّرْطَةِ فِي حِفْظِ النِّظامِ وَحِراسَةِ الأَمْنِ.

(٣) الْخائِبُون

وَلَمَّا افْتُتِحَ مَيْدانُ الصِّراعِ، تَحَلَّقَ الْمُتَبارُونَ عَلَى تَبايُنِ أَسْنانِهِمْ (أَعْمارِهِمْ) واخْتِلافِ بِلادِهِمْ، حَوْلَ الْمِنَصَّةِ الذَّهَبِيَّةِ الْعالِيَةِ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيْها قَوْسُ الْمُباراةِ، وَتَدافَعَ النَّظَّارَةُ مُتَطَلِّعِينَ لِرُؤْيَةِ الْمُتَبارِينَ.

وَوَقَفَ إِلَى جِوارِ الْقَوْسِ خَمْسَةُ فِتْيانٍ أَقْوِياءَ، أُولِي بَأْسٍ أَشِدَّاءَ، يَسْتَرْعُونَ انْتِباهَ النَّظَّارَةِ بِما يَرْتَدُونَ مِنْ ثِيابِ الْبَراهِمَةِ النُّسَّاكِ، وَيَسْتَثِيرُونَ إِعْجابَهُمْ بِما يَبْدُو عَلَى سِيماهُمْ مِنْ دَلائِلِ الْفُتُوَّةِ، وَأَماراتِ الْبَأْسِ وَالْقُوَّةِ وَظَهَرَتْ «دُرُوپادِي» أَمِيرَةُ «الْبَنْغالِ» فِي أَجْمَلِ زِيٍّ وَأَبْهَى حُلَّةٍ، عَلَى مَسافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ مِنْ قَوْسِ الْمُباراةِ، تُلاحِقُها عُيُونٌ عَشْرٌ، تَرْنُو إِلَيْها فِي شَوْقٍ واهْتِمامٍ. وَهَمَسَ أَكْبَرُ الإِخْوَةِ قائِلًا: «أَرْجُو أَنْ يُسْعِدَنِي الْحَظُّ بِزَواجِها.» فَأَجابَهُ «أَرْجُونا»: «لَنْ يَظْفَرَ بِها سِواكَ.» وَحانَتْ ساعَةُ الْبَدْءِ، فانْدَفَعَ الْمُتَنافِسُونَ إِلَى الْقَوْسِ يَتَسابَقُونَ، وَكُلُّهُمْ يُحاوِلُ جاهِدًا أَنْ يَحْنِيَ الْقَوْسَ، فَلا يَظْفَرَ



مِنْ مُحاوَلَتِهِ بِغَيْرِ الْخَيْبَةِ وَالإِخْفاقِ. وَكانَ نُسَّاكُ الْبَراهِمَةِ الْخَمْسَةِ يَبْتَسِمُونَ كُلَّما شَهِدُوا عَجْزَ الْمُتَنافِسِينَ.

(٤) الْفائِزُ الأَوَّلُ

ثُمَّ فُوجِئَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» بِما لَيْسَ فِي حُسْبانِهِمْ، فَغاضَتِ ابْتِسامَتُهُمْ، وَتَبَدَّلَ أُنْسُهُمْ وَحْشَةً وانْقِباضًا. حِينَ سَمِعُوا صَوْتَ الْمُنادِي يُعْلِنُ اسْمَ «كَرْنا». يا لَلْعَجَبِ! ما الَّذِي جاءَ بِخَصْمِهِمُ الْعَنِيدِ، وَشَيْطانِهِمُ الْمَرِيدِ!

وَرَأَوْا «كَرْنا» يَصْعَدُ إِلَى الْمِنَصَّةِ — دُونَ أَنْ يَفْطُنَ إِلَى أَعْيُنِهِمُ الْعَشْرِ الَّتِي يَكادُ الشَّرَرُ يَتَطايَرُ مِنْها — ثُمَّ يُمْسِكُ بِالْقَوْسِ وَهِيَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ «أَرْجُونا» وَإِخْوَتِهِ؛ وَإِنَّهُمْ لَيَكادُونَ يَلْتَهِمُونَهُ بِأَنْظارِهِمْ، وَيُزْلِقُونَهُ بِأَبْصارِهِمْ. وَقالَ «أَرْجُونا» يُسائِلُ نَفْسَهُ مُتَلَهِّفًا: «أَتُراهُ يَفُوزُ؟ أَتَكُونُ أَمِيرَةُ «الْبَنْغالِ» مِنْ نَصِيبِهِ؟» وَأَمْسَكَ الْفَتَى بِالْقَوْسِ يَحْنِيها فِي



مَشَقَّةٍ وَعُسْرٍ وَإِرْهاقٍ، وَتَصَبَّبَ وَجْهُهُ عَرَقًا. «أَتُراهُ يَفُوزُ؟» وَحَبَسَ النَّظَّارَةُ أَنْفاسَهُمْ مَأْخُوذِينَ بِما يَشْهَدُونَ. ها هِيَ ذِي قَوْسُ الْمُباراةِ تَلِينُ بَعْدَ اسْتِعْصاءِ، وَيَنْحَنِي وَتَرُها. «أَتُراهُ يَفُوزُ؟» أَيُّ جَهْدٍ مُضْنٍ يَبْذُلُهُ الْفَتَى! إِنَّ ساعِدَيْهِ (ذِراعَيْهِ) تَكادانِ تَنْخَلِعانِ. «أَتُراهُ يَنْهَزِمُ؟» كَلَّا فَقَدْ تَجَدَّدَتْ عَزِيمَتُهُ، والْتَهَبَتْ حَماسَتُهُ، فَشَدَّ الْقَوْسَ وَثَناها، وَرَمَى سِهامَهُ الْخَمْسَةَ، فَلَمْ تُخْطِئْ مَرْماها. لَقَدْ فازَ «كَرْنا» وَتَعالَتْ لِفَوْزِهِ صَيْحاتُ الْمُعْجَبِينَ تَشُقُّ أَجْوازَ الْفَضاءِ، وانْطَوَتْ صَيْحاتُ مُنافِسِيهِ، بَيْنَ هِتافِ مُهَنِّئِيهِ. وَقَفَزَ «دُرْيُدْهانا» إِلَى صَدِيقِهِ «كَرْنا» فِي فَرْحَةٍ طاغِيَةٍ وابْتِهاجٍ شَدِيدٍ مُمْسِكًا بِيَدِهِ، لِيُقَدِّمَهُ إِلَى أَمِيرَةِ «الْبَنْغالِ» وَهِيَ جالِسَةٌ أَمامَ سُرادِقِها الْحَرِيرِيِّ، مُرْتَدِيَةٌ حُلَّةَ الْعُرْسِ. وَفُوجِئَ النَّظَّارَةُ بِما لَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ عَلَى بالٍ، حِينَ رَأَوْا أَمِيرَةَ «الْبَنْغالِ» تَنْهَضُ مِنْ كُرْسِيِّها مُتَّجِهَةً إِلَى

«دُرْيُدْهانا» تَسْأَلُهُ فِي صَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ واضِحِ النَّبَراتِ: «خَبِّرْنِي عَنْ صاحِبِكَ أَيُّها الأَمِيرُ. مَنْ أَبُوهُ؟ فَإِنَّ أَوَّلَ شَرائِطِ الْمُباراةِ — فِيما تَعْلَمُ — أَلَّا يَشْتَرِكَ مَنْ لا يَجْرِي فِي عُرُوقِهِ دَمُ الإِمارَةِ والنُّبْلِ. وَلَعَلَّكَ سَمِعْتَ — فِيما سَمِعْتَ — أَنَّ والِدَ هَذا الْفَتَى لَمْ يَكُنْ — إِذا صَحَّتِ الشَّوائِعُ — إِلَّا حُوذِيًّا. فَكَيْفَ يَطْمَعُ ابْنُ حُوذِيٍّ فِي زَواجِ أَمِيرَةِ «الْبَنْغالِ»؟»

أَيُّ مُفاجَأَةٍ باغَتَتْهُ الأَمِيرَةُ بِها؟ إِنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ قَطُّ فِي جَوابِ هَذا السُّؤالِ، وَلَمْ يَخْطُرْ لَهُ قَبْلَ الْيَوْمِ عَلَى بالٍ. لَقَدْ وَفَدَ عَلَيهِمْ «كَرْنا» وانْدَمَجَ فِي رِفْقَتِهِمْ، دُونَ أَنْ يَسْأَلَهُ أَحَدٌ عَنْ مَوْطِنِهِ وَأُسْرَتِهِ، وَأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ.

وامْتُقِعَ وَجْهُ ابْنِ «الضَّرِيرِ» مِنْ شِدَّةِ الْخَجَلِ وَهَوْلِ الْمُفاجَأَةِ، والْتَفَتَ إِلَى صاحِبِهِ يَنْتَظِرُ إِجابَتَهُ، فَرَآهُ صامِتًا لا يُجِيبُ، وَقَدْ عَلَتْ وَجْهَهُ بَهْتَةُ الْمُتَحَيِّرِ الْمُرِيبِ، يَهُزُّ رَأْسَهُ مِنَ الْحَيْرَةِ، وَيَغُضُّ الطَّرْفَ (يُغْمِضُ الْعَيْنَ) وَلا يَنْطِقُ بِحَرْفٍ.

فَقالَتِ الأَمِيرَةُ: «فَلْيَعُدْ صاحِبُكَ مِنْ حَيْثُ جاءَ، وَلْيَذْهَبْ حَيْثُ شاءَ.»

فَلَمْ يَزِدْ «كَرْنا» عَلَى أَنْ بَسَطَ ذِراعَيْهِ، وَرَفَعَ إِلَى كَوْكَبِ الشَّمْسِ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ كَرَّ راجِعًا، وانْطَلَقَ صاحِبُهُ فِي أَثَرِهِ، وَلَفَّهُما الزِّحامُ فَغَيَّبَهُما فِي أَطْوائِهِ. وَعادَتِ الثِّقَةُ إِلَى قَلْبِ «أَرْجُونا» بَعْدَ فُقْدانِ الأَمَلِ، وَلَمْ يُطِقْ صَبْرًا عَلَى الْبَقاءِ، فَأَسْرَعَ إِلَى الأَمِيرَةِ وَحَيَّاها قائِلًا: «أَمَّا أَنا فَمَعْرُوفُ الأَصْلِ، عَرِيقٌ فِي الإِمارَةِ، بِرَغْمِ ما تَرَيْنَ مِنْ خُشُونَةِ مَظْهَرِي. فَهَلْ تَأْذَنِينَ لِي فِي أَنْ أُجَرِّبَ حَظِّي؟»

فَحَنَتِ الأَمِيرَةُ رَأْسَها مُوافِقَةً.

(٥) فارِسُ الْمَيْدانِ

وَعَلَى مَشْهَدٍ مِنَ الْجَمْعِ الْحاشِدِ تَوَجَّهَ النَّاسِكُ الْبَرْهَمِيُّ إِلَى الْقَوْسِ، فَرَفَعَها بِإِحْدَى يَدَيْهِ، وَشَدَّ بِالأُخْرَى وَتَرَها، فانْحَنَتْ فِي يَدِهِ أَشَدَّ انْحِناءٍ، وانْطَلَقَتْ سِهامُهُ الْخَمْسَةُ تِباعًا، مُسَدَّدَةً إِلَى هَدَفِهِ سِراعًا. واسْتَوْلَى الدَّهَشُ والإِعْجابُ عَلَى النَّظَّارَةِ بِما شَهِدُوهُ مِنْ بَراعَةِ «أَرْجُونا» وَقُوَّتِهِ، فارْتَفَعَ هُتافُهُمْ بِتَحِيَّتِهِ، وَدَوَّى تَصْفِيقُهُمْ إِعْجابًا بِقُدْرَتِهِ. وَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِ الأَمِيرَةُ تُحَيِّيهِ وَتُهَنِّئُهُ فِي ابْتِسامٍ وَإِعْجابٍ، ثُمَّ شَفَعَتْ تَحِيَّتَها وَتَهْنِئَتَها بِقَوْلِها: «إِنَّ

ما يَبْدُو عَلَى قَسِماتِ وَجْهِكَ، وَما شَهِدْناهُ مِنْ آياتِ مَجْدِكَ وَكَمالِ مُرُوءَتِكَ، لَدَلِيلٌ أَيُّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّكَ عَرِيقٌ فِي الإِمارَةِ أَصِيلٌ.»

وَبَدا الْغَيْظُ وَالْحَنَقُ عَلَى وَجْهِ الْمَلِكِ — أَوَّلَ الأَمْرِ — حِينَ رَأَى النَّاسِكَ الْبَرْهَمِيَّ يَظْفَرُ فِي الْمُباراةِ، وَلَكِنَّهُ سُرْعانَ ما غَمَرَهُ الْفَرَحُ حِينَ داناهُ، وَتَبَيَّنَ مَلامِحَهُ وَسِيماهُ، فَهَشَّ لَهُ وَحَيَّاهُ.

ثُمَّ خَتَمَ تَحِيَّتَهُ بِقَوْلِهِ: «لَقَدْ بَهَرَتْنِي شَجاعَتُكَ وَشَجاعَةُ إِخْوَتِكَ حِينَ قَدِمْتُمْ إِلَى مَمْلَكَتِي غُزاةً فاتِحِينَ، مُتَوَثِّبِينَ لِنُصْرَةِ «دُرُونا» مُتَحَمِّسِينَ. وَكانَ مِنْ أَشْهَى رَغَباتِي وَأَكْبَرِ أُمْنِيَّاتِي، أَنْ يُسْعِدَنِي الْحَظُّ بِتَزْوِيجِ ابْنَتِي واحِدًا مِنْكُمْ. وَقَدْ أَظْفَرَنِيَ الْقَدَرُ بِما أَتَمَنَّاهُ، فَشُكْرًا للهِ.» فَقالَ «أَرْجُونا»: «لَقَدِ اخْتارَها عَمِيدُ أُسْرَتِنا زَوْجًا لَهُ!»

فَأَجابَهُ الْمَلِكُ: «ما أَسْعَدَها بِهِ.» وَلَمْ يَكُنِ ابْتِهاجُ الأَمِيرَةِ بِأَقَلَّ مِنِ ابْتِهاجِ أَبِيها، حِينَ عَلِمَتْ أَنَّ شَرِيكَ حَياتِها هُوَ عَمِيدُ أُسْرَةِ «الشَّهِيدِ» وَخَلِيفَةُ «بِهِشْما» فِي مُلْكِهِ السَّعِيدِ، وَأَيْقَنَتْ أَنَّها سَتُصْبِحُ بَعْدَ قَلِيلٍ مَلِكَةَ «هَسْناپورا». وَتَمَّتْ مَراسِمُ الزَّواجِ، وَذاعَ ما كانَ مَطْوِيًّا مِنْ أَنْباءِ الأُمَراءِ، وانْتَقَلَتِ الْبَشائِرُ إِلَى وَطَنِهِمْ فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ.



فابْتَهَجَ لَها الأَهْلُونَ أَيَّما ابْتِهاجٍ، واشْتَدَّ فَرَحُ «بِهِشْما» فَجَمَعَ مَجْلِسَ الشُّورَى عَلَى عَجَلٍ، لِيُعِيدَ إِلَيْهِمْ ما سَلَبَهُ ابْنُ عَمِّهِمْ مِنْ حَقِّهِمْ. وانْتَهَى قَرارُ الْمَجْلِسِ إِلَى قِسْمَةِ الْمَمْلَكَةِ بَيْنَ أَبْناءِ «الضَّرِيرِ» وَأَبْناءِ «الشَّهِيدِ».

وَلَمْ يَسَعْ «دُرَيْدُهانا» أَنْ يُعارِضَ قَرارَهُمْ، بَعْدَ أَنْ رَأَى سُراةَ الدَّوْلَةِ وَأَعْيانَها يُجْمِعُونَ عَلَيْهِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ أَبُوهُ، فَلَمْ يَسَعْهُ إِلَّا أَنْ يَتَظاهَرَ بِالْقَبُولِ، وَيَحْنِيَ رَأْسَهُ لِلْعاصِفَةِ حَتَّى تَمُرَّ بِسلامٍ، وَهُوَ يُضْمِرُ الْكَيْدَ لَهُمْ والإِيقاعَ بِهِمْ. وَراحَ الْخَبِيثُ يُغْدِقُ الْمالَ عَلَى أَنْصارِهِ وَمُؤَيِّدِيهِ، وَيَرْشُو مِنْ يَقِفُ مِنْ مَعارِضِيهِ، وَيَفْتِكُ بِمَنْ يُصِرُّ عَلَى مُناوَأَتِهِ، بَعْدَ أَنْ يَيْأَسَ مِنِ اسْتِجْلابِ مَوَدَّتِهِ. وَما زالَ يُحاوِرُهُمْ وَيُداوِرُهُمْ، حَتَّى انْتَهَى قَرارُهُمْ إِلَى أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِالنِّصْفِ الْعامِرِ الآهِلِ بِالسُّكَّانِ، تارِكًا لأَبْناءِ عَمِّهِ النِّصْفَ الْغامِرَ (الْمُجْدِبَ الْمَهْجُورَ). فَلَمْ يَجِدُوا بُدًّا مِنَ التَّسْلِيمِ بِما قَضَى بِهِ وَحَكَمَ، لِما يَعْلَمُونَ مِنْ طُغْيانِهِ، وَعَجْزِ جَدِّهِمْ عَنْ نَقْضِ ما أَبْرَمَ. فاتَّخَذُوا أُهْبَتَهُمْ، وَأَعَدُّوا لِلرَّحِيلِ عُدَّتَهُمْ، وَما زالُوا يُواصِلُونَ السَّيْرَ حَتَّى بَلَغُوا مَمْلَكَتَهُمُ الْمُجْدِبَةَ الْفَقِيرَةَ، وَهُمْ عَلَى ثِقَةٍ بِقُدْرَتِهِمْ عَلَى بَعْثِ الْحَياةِ فِي جَدْبِها وَمَواتِها، وَإِشاعَةِ الْخِصْبِ والنَّماءِ فِي صَحارِيها الْقاحِلَةِ وَفَلَواتِها، بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ دُءُوبٍ وَمُثابَرَةٍ وَصَبْرٍ عَلَى مُكافَحَةِ الأَهْوالِ، وَعَزِيمَةٍ كالْحَدِيدِ تَدُكُّ الْجِبالَ. وَكانَتْ حاضِرَةُ مُلْكِهِمُ الْجَدِيدَةُ أَوَّلَ ما وَجَّهُوا إِلَيْهِ هِمَّتَهُمْ، وَفَوَّقُوا إِلَيْهِ عَزِيمَتَهُمْ. فَبَدَءُوا بِإِصْلاحِها وَتَعْبِيدِ طُرُقاتِها وَتَخْطِيطِ بَساتِينِها وَمُتَنَزَّهاتِها، وَهَدْمِ ما تَداعَى مِنْ دُورِها وَمَعابِدِها، وَأَقامُوا عَلَى أَنْقاضِها صُرُوحًا باذِخَةً وَمَعابِدَ فَخْمَةً، بَعْدَ أَنْ جَلَبُوا كِبارَ مُهَنْدِسِي الْهِنْدِ، وَبَذَلُوا لَهُمْ ما وَسِعَهُمْ مِنْ تَشْجِيعٍ وَمالٍ، فَلَمْ يَمْضِ زَمَنٌ قَلِيلٌ حَتَّى أَصْبَحَتْ حاضِرَةُ مُلْكِهِمْ أَفْخَمَ حَواضِرِ الْهِنْدِ، وَأَصْبَحَ قَصْرُ جَدِّهِمْ يَتَضاءَلُ بِالْقِياسِ إِلَى قَصْرِهِمُ الَّذِي تَخَيَّرُوا لَهُ أَحْسَنَ مَيْدانٍ، وَتَأَنَّقُوا فِي هَنْدَسَتِهِ وَزَخْرَفَتِهِ، حَتَّى غَدا جَدِيرًا بِسُكْنَى أَمِيرَةِ «الْبَنْغالِ». وَأَقامُوا دارًا عَظِيمَةً يَرْتادُها الْمُطالِعُونَ، وَجَلَبُوا ما اسْتَطاعُوا مِنْ نَفائِسِ الْكُتُبِ.

وَزَخَرَتِ الْحاضِرَةُ بَعْدَ أَنْ أَقْبَلَ عَلَيْها النَّاسُ مِنْ كُلِّ صُقْعٍ، فَدَبَّتِ الْحَياةُ فِي أَرْجائِها، وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَتْ مِنْ أَغْنَى حَواضِرِ الْهِنْدِ وَأَحْفَلِها بِالسُّكَّانِ. فَلَمَّا تَمَّ لأَبْناءِ «الشَّهِيدِ» ما أَرادُوا، وَجَّهُوا جُهُودَهُمْ لإِصْلاحِ ما جاوَرَها مِنَ الْبِلادِ، فَصَنَعُوا بِها صَنِيعَهُمْ بِالْعاصِمَةِ، وَشَقُّوا الْجَداوِلَ فِي الْمَزارِعِ، وَأَقامُوا الْجُسُورَ، والدَّساكِرَ والدُّورَ، وَما زالُوا يَتَعَهَّدُونَها بَلَدًا بَعْدَ آخَرَ، حَتَّى أَصْبَحَتْ قُراها وَمَدائِنُها تُنافِسُ الْحاضِرَةَ فِي الثَّرْوَةِ وَالْعُمْرانِ، حافِلَةً بِمَعاهِدِ الْعِلْمِ، وَأَسْواقِ التِّجارَةِ، وَحَمَّاماتِ السِّباحَةِ، والْبَساتِينِ والْمُرُوجِ والْمُتَنَزَّهاتِ.

فَلَمَّا عادُوا بَعْدَ أَنْ تَمَّ لَهُمْ ما أَرادُوا، فَكَّرُوا فِي إِقامَةِ مِهْرَجانٍ عَظِيمٍ ابْتِهاجًا بِتَتْوِيجِ أَخِيهِمُ الأَكْبَرِ. وَدَعَوْا إِلَيْهِ مَنْ جاوَرَهُمْ مِنْ مُلُوكِ الْهَنْدِ وَأُمَرائِها، وَلَمْ يَسْتَثْنُوا مِنْ دَعْوَتِهِمْ أَبْناءَ عَمِّهِمْ، بِرَغْمِ ما يَعْرِفُونَهُ مِنْ بُغْضِهِمْ لَهُمْ وَعَداوَتِهِمْ. وَكانَ «دُرْيُدْهانا» — كَما عَلِمْتَ — شانِئًا لَهُمْ حَقُودًا، مُضْطَغِنًا عَلَيْهِم حَسُودًا. وَكانَ كَما رَأَيْتَ لا يَفْتُرُ حَسَدُهُ، وَلا يَهْدَأُ حِقْدُهُ، وَلا يَفْرُغُ كَيْدُهُ، فَلَمَّا شَهِدَ الْمِهْرَجانَ، وَرَأَى ما دَبَّ فِي مُلْكِهِمْ مِنَ الْعُمْرانِ، وَشَهِدَ مَدِينَةَ «اندربرشتا» الَّتِي شَيَّدُوها عَلَى أَجْمَلِ طِرازٍ وَأَبْهَى غِرارٍ، وَرَأَى قَصْرَهُمُ الْعَظِيمَ تَحُفُّهُ الْمُرُوجُ والْبَساتِينُ، امْتَلأَ قَلْبُهُ بِالْغَيْظِ وَالْحَنَقِ، فَكادَ يَحْتَرِقُ، وَكادَتْ مَرارَتُهُ تَنْشَقُّ. وَضاعَفَ مِنْ بُغْضِهِ وَشَنآنِهِ، وَزادَ فِي غَضَبِهِ وَأَحْزانِهِ، ما جَرَّهُ إِلَيْهِ الْغَيْظُ مِنْ حَيْرَةٍ وَغَفْلَةٍ أَذْهَلاهُ، وَغَطَيا عَلَى بَصَرِهِ وَأَعْمَياهُ، فَراحَ يَتَخَبَّطُ فِي طَرِيقِهِ وَيَتَعَثَّرُ، فِي غَيْرِ هَدْيٍ وَلا تَبَصُّرٍ، وَهَمَّ بِدُخُولِ إِحْدَى حُجُراتِ الْقَصْرِ، وَكانَتْ أَرْضُها مِنَ الْبَلُّورِ فَحَسِبَها بِرْكَةَ ماءٍ، فَشَمَّرَ عَنْ ساقَيْهِ حَتَّى لا تَبْتَلَّ ثِيابُهُ.

ثُمَّ أَفاقَ مِنْ ذُهُولِهِ، فَأَدْرَكَ خَطَأَهُ، فَخَجِلَ مِمَّا صَنَعَ. وَتَعالَتْ ضَحِكاتُ السَّاخِرِينَ، فَزادَتْ فِي حَيْرَتِهِ، فَلَمَّا انْتَقَلَ إِلَى رُدْهَةِ الْقَصْرِ رَأَى فِي وَسَطِها بِرْكَةَ ماءٍ، فَحَسِبَها بَلُّورًا، فَوَقَعَ فِيها. واشْتَدَّ ارْتِباكُهُ حِينَ اعْتَرَضَهُ بابٌ زُجاجِيٌّ لا يَعْتَرِضُ الْعَيْنَ لِشُفُوفِهِ، وَلا يَحْجُبُ ما وَراءَهُ لِصَفائِهِ. وَكانَ زُجاجُ الْقَصْرِ — نَوافِذِهِ وَأَبْوابِهِ — آيَةً فِي صَفاءِ مَعْدِنِهِ، وَرِقَّةِ مُسْتَشَفِّهِ (الْمَوْضِعِ الَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ فَتَرَى ما وَراءَهُ) كَأَنَّما عَناهُ «ابْنُ الرُّومِيِّ» الشَّاعِرُ الْمُبْدِعُ بِقَوْلِهِ:

«تَنْفُذُ الْعَيْنُ فِيهِ حَتَّى تَراها أَخْطَأَتْهُ مِنْ رِقَّةِ الْمُسْتَشَفِّ.»

فَأَخْطَأَتْهُ عَيْنا «دُرْيُدْهانا»، وَلَمْ يَفْطُنْ إِلَيْهِ حِينَ رَآهُ، فَكَسَرَهُ وَهُوَ يُحاوِلُ أَنْ يَجْتازَهُ وَيَتَخَطَّاهُ. وَتَوالَى خَطَؤُهُ، وَلَجَّ بِهِ عِثارُهُ، فَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ الْكَيْدَ والانْتِقامَ. وَلَمَّا عادَ إِلَى بَلَدِهِ أَعَدَّ لانْتِقامِهِ خُطَّةً ماكِرَةً. وَكانَ يَعْلَمُ أَنَّ كَبِيرَ أَبْناءِ «الشَّهِيدِ» يَفُوقُهُ فِي فُنُونِ الرِّمايَةِ وَمَيْدانِ الْحَرْبِ، وَلَكِنَّهُ يَعْجِزُ عَنْ مُجاراتِهِ فِي النَّرْدِ والشَّطَرَنْجِ وَما إِلَيْهِما مِنْ فُنُونِ اللَّعِبِ. وَكانَتِ الإِمارَةُ وَالْفُرُوسِيَّةُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ — لِسُوءِ الْحَظِّ — لا تَكْمُلانِ إِلَّا بِإِجادَتِهِما والْبَراعَةِ فِيهِما. وَقَدْ عَرَفَ ابْنُ «الضَّرِيرِ» أَنَّ ابْنَ عَمِّهِ سَرِيعُ الْغَضَبِ إِذا

غُلِبَ. وَهَذا مَكْمَنُ ضَعْفِهِ، وَمَجالُ هَزيمَتِهِ. وَلا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ الْغَضَبَ إِذا اسْتَوْلَى عَلَى صاحِبِهِ سَلَبَهُ عَقْلَهُ، وَمَكَّنَ عَدُوَّهُ مِنْ مَقْتَلِهِ. وَكانَ قانُونُ الْفُرُوسِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ — حِينَئِذٍ — يَقْضِي عَلَى الْفارِسِ أَنْ يُلَبِّيَ دَعْوَةَ مَنْ يَتَحَدَّاهُ إِذا دَعاهُ إِلَى الْحَرْبِ، أَوْ دَعاهُ إِلَى الشَّطَرَنْجِ والنَّرْدِ. فَإِذا تَرَدَّدَ فِي قَبُولِ تَحِدِّيهِ أَوْ رَفَضَ دَعْوَتَهُ، فَقَدَ مَكانَتَهُ وَمَنْزِلَتَهُ. وَأَضاعَ صِيتَهُ وَسُمْعَتَهُ. وَكانَ أَوَّلُ ما بَدَأَ بِهِ ابْنُ «الضَّرِيرِ» بَعْدَ أَنْ عادَ إِلَى حاضِرَةِ مُلْكِهِ، أَنْ وَجَّهَ الدَّعْوَةَ لابْنِ عَمِّهِ لِلْحَفْلَةِ الَّتِي أَعَدَّها لِتَكْرِيمِهِمْ والْحَفاوَةِ بِهِمْ، تَقْدِيرًا لِما وُفِّقُوا إِلَيْهِ مِنْ نَجاحٍ فِي تَجْدِيدِ مَمْلَكَتِهِمْ.

فَلَمْ يَسَعْهُمْ إِلَّا قَبُولُ دَعْوَتِهِ. وانْتَهَزَ ابْنُ «الضَّرِيرِ» فُرْصَةَ الْحَفاوَةِ بِهِمْ لِتَنْفِيذِ ما دَبَّرَهُ، فالْتَفَتَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ «يُدِشتِ-هِيرا» يَدْعُوهُ فِي تَحَدٍّ وَإِصْرارٍ إِلَى النَّرْدِ، فَوَجَمَ الأَمِيرُ وامْتُقِعَ وَجْهُهُ (اصْفَرَّ)، وَسَأَلَهُ أَنْ يُعْفِيَهُ. فَأَجابَهُ ابْنُ «الضَّرِيرِ»: «يالَلْعارِ! أَهَكَذا يَسْتَوْلِي عَلَيْكَ الْخَوْفُ والْجُبْنُ فَتَهْرُبَ مِنَ الْمَيْدانِ؟»

فَغَضِبَ ابْنُ «الشَّهِيدِ» وَثارَ، وَلَمْ يَجِدْ سَبِيلًا لِلْفِرارِ.

وَبَدَأَتِ الْمُباراةُ، والْتَفَّ حَوْلَهُما رِجالُ الْقَصْرِ يَمْرَحُونَ وَيَتَفَكَّهُونَ، وَتَوَجَّسَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» شَرًّا، فَخَيَّمَ عَلَيْهِمُ الصَّمْتُ والْوُجُومُ. وانْتَحَوْا مَكانًا قَرِيبًا وَهُمْ عَلَى ثِقَةٍ بِسُوءِ الْعاقِبَةِ، وَلَكِنْ لا حِيلَةَ لَهُمْ فِي دَفْعِ الْمَقْدُورِ، وَقَدْ غُلِبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى وَسِيلَةٍ تُخْرِجُهُمْ مِنَ الْمَأْزِقِ الَّذِي وَرَّطَهُمْ فِيهِ ابْنُ «الضَّرِيرِ». وانْتَهَتِ الْجَوْلَةُ الأُولَى بِهَزِيمَةِ «يُدِشتِ-هِيرا»، فَشَحَبَ وَجْهُهُ وارْتَعَشَتْ يَداهُ، وَأَسْلَمَهُ الْغَضَبُ إِلَى مُضاعَفَةِ الرِّهانِ. فَلَمْ يَكُنْ حَظُّهُ فِي الْجَوْلَةِ الثَّانِيَةِ خَيْرًا مِنْهُ فِي الْجَوْلَةِ الأُولَى، فاحْتَدَمَ غَضَبُهُ وَزادَ رِهانَهُ. وَما زالَ يَشْتَدُّ بِهِ الْغَضَبُ فَيَزِيدُ فِي الرِّهانِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. وانْقَضَتِ السَّاعاتُ، وَسادَ الصَّمْتُ وَأَطْبَقَ السُّكُونُ عَلَى الْحاضِرِينَ. وَما زالَ الْمُتَبارِيانِ، يَزِيدانِ فِي الرِّهانِ وَيُضاعِفانِ، حَتَّى تَمَّتِ الْغَلَبَةُ لابْنِ «الضَّرِيرِ» عَلَى ابْنِ عَمِّهِ. وَأَضاعَ ابْنُ «الشَّهِيدِ» كُلَّ ما يَمْلِكُ هُوَ وَإِخْوَتُهُ مِنْ ثَرْوَةٍ وَمالٍ.

فَهَلْ وَقَفَ عِنْدَ هَذا الْحَدِّ؟ كَلَّا، بَلْ أَسْلَمَهُ الْغَضَبُ إِلَى ما يُشْبِهُ الْجُنُونَ فَصاحَ قائِلًا: «أُراهِنُ بِقَصْرِي.» فَلَمَّا أَضاعَهُ، قالَ: «مَمْلَكَتِي، إِخْوَتِي، نَفْسِي.» وَسُرْعانَ ما فَقَدَهُمْ جَمِيعًا، وَأَصْبَحَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» خَدَمًا لابْنِ عَمِّهِمْ عَبِيدًا. واسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْخَبالُ فَقالَ:



«هَلْ بَقِيَ لِي شَيْءٌ أُراهِنُ عَلَيْهِ؟» فَأَجابَهُ الْماكِرُ الْخَبِيثُ: «بَقِيَتْ زَوْجَتُكَ» فَقالَ: «نَعَم نَعَم وَسَأُراهِنُ بِها أَيْضًا.» وَسُرْعانَ ما أَضاعَ زَوْجَتَهُ، كَما أَضاعَ مالَهُ وَثَرْوَتَهُ، وَنَفْسَهُ وَإِخْوَتَهُ، وَهُنا صاحَ ابْنُ «الضَّرِيرِ» صَيْحَةَ الْفائِزِ الْمُنْتَصِرِ ساخِرًا مُسْتَهْزِئًا:

«الآنَ تَمَّ لِيَ النَّصْرُ عَلَيْكُمْ، فَأَصْبَحَتُ لَكُمْ سَيِّدًا، وَأَصْبَحْتُمْ لِي عَبِيدًا، أَتَصَرَّفُ فِي أَمْوالِكُمْ وَبِلادِكُمْ وَكُنُوزِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ كَما أَشاءُ. الآنَ أَشْفِي غَلِيلِي، فَآمُرُ بِنَفْيكُمْ ثَلاثَةَ عَشَرَ عامًا كامِلَةً، كَما آمُرُ أَنْ تُصْبِحَ زَوْجَتُكَ «دُرُوپادِي» مُنْذُ الآنَ فِي قَصْرِي أَمَةً ماهِنَةً (مُسْتَعْبَدَةً خادِمَةً) تُنَظِّفُ طَرِيقِي مِنَ الْغُبارِ، أَنَّى ذَهَبْتُ وَحَيْثُما سِرْتُ.»



وَهُنا دَوَّى صَوْتٌ نُسْوِيٌّ يَقُولُ مُتَحَدِّيًا: «ذَلِكَ ما لا يَكُونُ؛ كَلا لَنْ يَكُونَ ما تُرِيدُ أَيُّها الشَّيْطانُ الْمَرِيدُ.» وَتَلَفَّتَ الْحاضِرُونَ فَرَأَوْا «دُرُوپادِي» قادِمَةً عَلَيْهِمْ فِي ثَوْبِها الْجَمِيلِ، وَسَمِعُوها تُتِمُّ ما بَدَأَتْهُ مِنْ وَعِيدٍ وَتَهْدِيدٍ. فَكَيْفَ قَدِمَتْ؟ كانَ قَلْبُها يُحَدِّثُها بِما جَرَى بَيْنَ أَبْناءِ الْعَمِّ. وَهَتَفَ بِها هاتِفٌ مِنَ الْغَيْبِ بِأَنَّ قَضاءً قاهِرًا يَنْتَظِرُ زَوْجَها

وَإِخْوَتَهُ فِي «هَسْناپُورا» فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِ لِتُنْذِرَهُ وَتُحَذِّرَهُ، فَلَمْ تَصِلْ إِلَّا نَئِيشًا (بَعْدَ فَواتِ الْوَقْتِ). وَرَأَتْ ما يَرْتَسِمُ عَلَى وُجُوهِ الْقَوْمِ مِنْ وُجُومٍ وَحَسْرَةٍ، وارْتِباكٍ وَحَيْرَةٍ، فَقالَتْ: «حَدِّثُونِي أَيُّها السَّادَةُ بِما جَدَّ مِنْ شَأْنٍ، وَما حَدَثَ مِنْ أَمْرٍ.» فَقَصَّ عَلَيْها «أَرْجُونا» — فِي لَهْجَةٍ حَزِينَةٍ — تَفْصِيلَ ما حَدَثَ. فارْتَسَمَتْ عَلَى ثَغْرِها ابْتِسامَةُ الطُّمَأْنِينَةِ والثِّقَةِ، وَقالَتْ مُسائِلَةً: «خَبِّرُونِي أَيُّها السَّادَةُ. أَيَسْتَطِيعُ الْعَبْدُ أَنْ يَمْلِكَ؟ أَيَسْتَطِيعُ الْعَبْدُ أَنْ يَبِيعَ أَوْ يَهَبَ (يَمْنَحَ)؟ أَيَسْتَطِيعُ مَنْ وَقَعَ فِي أَسْرِ الْعُبُودِيَّةِ أَنْ يَبِيعَ مَنْ يَمْرَحُ فِي بَحْبُوحَةِ الْحُرِّيَّةِ؟» فاقْتَنَعَ بِكلامِها الْحاضِرُونَ، مُؤْمِنِينَ بِصَوابِ ما قالَتْهُ مُصَدِّقِينَ. واجْتَمَعَ الرَّأْيُ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لا يَمْلِكُ. فاسْتَأْنَفَتْ قائِلَةً مُوَجِّهَةً حَدِيثَها إِلَى ابْنِ «الضَّرِيرِ»: «فَكَيْفَ يَجُوزُ لِعَبْدٍ فَقَدَ نَفْسَهُ وَسُلِبَ حُرِّيَّتُهُ أَنْ يَبِيعَ امْرَأَةً وَلَوْ كانَتْ زَوْجَتَهُ؟» وَهُنا لَمْ يَسَعْهُ إِلَّا أَنْ يُنَكِّسَ رَأْسَهُ نازِلًا عَلَى حُكْمِها، مُسَلِّمًا بِرَأْيِها. فاسْتَأْنَفَتْ قائِلَةً: «وَقَدْ وَجَبَ عَلَيَّ أَنْ أَصْحَبَ زَوْجِي وَإِخْوَتَهُ فِي شَقاوَتِهِمْ وَمِحْنَتِهِمْ، كَما صَحِبْتُهُمْ فِي هَناءَتِهِمْ وَسَعادَتِهِمْ. وَسَتَرَى كَيْفَ نَعُودُ مِنَ الْمَنْفَى سالِمِينَ، مُتَحَفِّزِينَ لِلانْتِقامِ مُسْتَعِدِّينَ.»

وَلَمْ يَتَمالَكْ سَراةُ الْمَمْلَكَةِ وَأَعْيانُها أَنْ يُصَفِّقُوا لَها، إِعْجابًا بِشَجاعَتِها وَهِمَّتِها. وَكانُوا — بِرَغْمِ ما يُعْلِنُونَ مِنْ طاعَةِ الطَّاغِيَةِ — يُضْمِرُونَ لَهُ الْكَراهِيَةَ والْمَقْتَ، كَما يُضْمِرُونَ لِأَبْناءِ عَمِّهِ الْمَوَدَّةَ والْحُبَّ.

فاحْمَرَّ وَجْهُ الطَّاغِيَةِ غَضَبًا، وَعَضَّ شَفَتَهُ وَهُوَ يَكادُ يَتَمَيَّزُ (يَتَشَقَّقُ) مِنَ الْغَيْظِ والْحَنَقِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ عَلَى إِنْكارِ حَقِّ الأَمِيرَةِ بَعْدَ أَنْ أَقَرَّها الْحاضِرُونَ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكْتُمَ غَضَبَهُ وَيَكْظِمَ غَيْظَهُ فَصاحَ قائِلًا: «لِيَكُنْ لَكِ ما تُرِيدِينَ، فاذْهَبِي حَيْثُ تَشائِينَ، وانْطَلِقِي فِي صُحْبَةِ زَوْجِكِ التَّاعِسِ إِلَى مَنْفاهُ، وَشارِكِيهِ فِيما يُكابِدُهُ وَيَلْقاهُ، وانْعَمِي بِحَياةِ الشَّقاءِ بَيْنَ نُسَّاكِ الْغابَةِ، فَرُبَّما اسْتَطاعَتْ أَعْوامُ النَّفْيِ الطِّوالُ أَنْ تُخَفِّفَ مِنْ عَجْرَفَتِكِ وَغُلَوائِكِ، وَتُذِلَّ مِنْ صَلَفِكِ وَكِبْرِيائِكِ، بَعْدَ أَنْ تُذْبِلَ شَبابَكِ وَتُذْهِبَ جَمالَكِ.»

ثُمَّ شَفَّعَ وَعِيدَهُ بِابْتِسامَةٍ غادِرَةٍ، أَتْبَعَها بِضَحِكَةٍ ساخِرَةٍ، وانْطَلَقَ فِي طَرِيقِهِ مُسْرِعًا.

وَحانَتْ ساعَةُ الْفِراقِ، فَشَيَّعَهُمْ صَفْوَةٌ مِنْ خُلَصائِهِمْ وَأَصْفِيائِهِمْ إِلَى بابِ الْمَدِينَةِ، واسْتَوْلَى الأَسَى والْحُزْنُ عَلَى جَدِّهِمْ «بِهِشْما» حِينَ رَأَى ضَعْفَ الشَّيْخُوخَةِ يُعْجِزُهُ عَنِ الْوُقُوفِ فِي وَجْهِ حَفِيدِهِ، لِرَدِّ عُدْوانِهِ، وَكَفِّهِ عَنْ طُغْيانِهِ. وَقالَ لِوَلَدِهِ «درستراسا»



الضَّريرِ، مُتَحَسِّرًا: «أَرَأَيْتَ كَيْفَ عَصَفَ بِأُسْرَتِنا الْقَضاءُ، وَأَلْهَبَ فِي قُلُوبِها نارَ الْكَراهِيَةِ والْبَغْضاءِ؟ وَهَيْهاتَ أَنْ يَنْعَمُوا بَعْدَ الْيَوْمِ بِما يَنْعَمُ بِهِ الأَقارِبُ مِنْ صَفاءٍ، وَمَحَبَّةٍ وَوَفاءٍ وَسَتَرَى كَيْفَ يَعُودُ أَبْناءُ أَخِيكَ إِلَى الْقِتالِ، بَعْدَ انْقِضاءِ أَعْوامِ النَّفْيِ الطِّوالِ.»

وَأُرْتِجَ عَلَى «الضَّرِيرِ» وَلَمْ يُسْعِفْهُ الْجَوابُ. وَكادَ النَّدَمُ يَقْتُلُهُ عَلَى ما أَسْلَفَ لأَوْلادِ أَخِيهِ مِنْ إِساءَةٍ، وَما دَبَّرَهُ — مَعَ وَلَدِهِ — مِنْ كَيْدٍ خَسِيسٍ، كادَ — لَوْلا لُطْفُ اللهِ — يُلْقِي بِهِمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

ومِنْ عَجائِبِ ما حَدَّثَنا بِهِ رُواةُ هَذِهِ الْمَأْساةِ، ما شَهِدَهُ سُكَّانُ «هَسْناپُورا» فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْحافِلِ بِأَعْنَفِ الذِّكْرَياتِ. فَقَدْ سَمِعُوا عَقِبَ خُرُوجِ الأُمَراءِ مِنْ بابِ الْمَدِينَةِ دَوِيًّا وَجَلْجَلَةً كَهَزِيمِ الرَّعْدِ، خَيَّلا إِلَيْهِمْ أَنْ الأَرْضَ قَدْ زُلْزِلَتْ زِلْزالَها. وَأَقْبَلَ ظَلامُ اللَّيْلِ فَمَحا آيَةَ النَّهارِ.

الفصل الرابع

المْعْرَكَةُ الْحاسِمَةُ

(١) ابْنُ الشَّمْسِ

وَلَبِثَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» فِي مَنْفاهُمْ بِالْغابَةِ ثَلاثَةَ عَشَرَ عامًا كامِلَةً، مَرَّتْ بِهِمْ أَيَّامُها — كَما تَمُرُّ أَيَّامُ الشَّقاءِ — بَطِيئَةَ الْخُطَى، ثَقِيلَةَ الْوَقْعِ، فَلَمَّا طَلَعَ فَجْرُ الْعامِ الْجَدِيدِ أَسْرَعَ «يُدِشْتِ-هِيرا» إِلَى خَتَنِهِ (والِدِ زَوْجَتِهِ) فَلَمْ يُقَصِّرْ فِي إِمْدادِ صِهْرِهِ (زَوْجِ ابْنَتِهِ) بِما يَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ مالٍ وَعَتادٍ وَرِجالٍ. وَتَرامَتِ الأَنْباءُ إِلَى «دُرْيُدْهانا» بِما أَعَدَّهُ مَلِكُ «الْبَنْغالِ» لأَبْناءِ عَمِّهِ مِنْ جَيْشٍ وَعتادٍ، فَلَمْ يُفاجَأْ بِالْخَبَرِ. فَقَدْ كانَ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ — مُنْذُ غادَرُوا أَرْضَ الْوَطَنِ إِلَى مَنْفاهُمْ — أَنَّهُمْ لَنْ يُقَصِّرُوا فِي الانْتِقامِ، وَلَنْ يَتَوانَوْا عَنِ الْمُطالَبَةِ بِثَأْرِهِمْ. فَلَمْ يُضِعْ شَيْئًا مِنْ وَقْتِهِ، وَراحَ يَحْشُدُ الْجُيُوشَ وَيَعْقِدُ مُحالَفاتِ الصَّداقَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جِيرانِهِ، خِلالَ ثَلاثَةَ عَشَرَ مِنَ الأَعْوامِ فَلَمَّا بَلَغَهُ النَّبَأُ أَسْرَعَ إِلَى صَفِيِّهِ «كَرْنا» يَسْأَلُهُ أَنْ يَتَوَلَّى قِيادَةَ جَيْشِهِ الْعَظِيمِ، لِيَتِمَّ عَلَى يَدَيْهِ النَّصْرُ. فَقالَ لَهُ «كَرْنا»: «هَيْهاتَ ذَلِكَ هَيْهاتَ. فَما تَسْتَطِيعُ يَدِي أَنْ تَمْتَدَّ لأَبْناءِ «الشَّهِيدِ» بِسُوءٍ، وَلَنْ يَتِمَّ نَصْرُكَ بِغَيْرِ قَهْرِهِمْ. كَلا لَنْ أُحارِبَ غَيْرَ «أَرْجُونا» وَحْدَهِ، فَلَيْسَ لِي فِي هَذِهِ الْحَياةِ مُنافِسٌ غَيْرُهُ؛ وَأَحْسَبُ أَنَّ الدُّنْيا قَدْ ضاقَتْ بِنا فَأَصْبَحَتْ لا تَسَعُنِي وَإِياهُ، وَلَوِ اسْتَطَعْتُ لَسَلَلْتُ لِسانَهُ مِنْ قَفاهُ.». وَحاوَلَ ابْنُ «الضَّرِيرِ» أَنْ يُزَحْزِحَ صَفَيَّهُ «كَرْنا» عَنْ رَأْيِهِ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ، فَلَمْ يَظْفَرْ بِطائِلٍ. فَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، وَما زالَ بِهِ حَتَّى قَبِلَ «كَرْنا» قِيادَةَ الْجَيْشِ، عَلَى أَلا يَمُدَّ يَدَهُ بِسُوءٍ لإِخْوَةِ «أَرْجُونا»».

وَكانَ لِهَذا الْقائِدِ الْفَتَى قِصَّةٌ يَكْتَنِفُها الْغُمُوضُ. وَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَعْرِفَها عَلَى وَجْهِها الصَّحِيحِ: فَلَمْ تَكُنْ أَمُّ «كَرْنا» عَلَى الْحَقِيقَةِ غَيْرَ الْمَلِكَةِ «كَنْتِي» زَوْجَةِ الشَّهِيدِ «بَنْدُو» فَهُوَ أَخٌ لِمُنافِسِهِ «أَرْجُونا» وَإِخْوَتِهِ كَما تَرَى، أَخٌ لَهُمْ مِنْ أُمِّهِمْ وَإِنْ جَهِلُوا ذَلِكَ.

فَمِنْ أَيِّ أَبٍ أَنْجَبَتْهُ أُمُّهُ؟ مِنَ الشَّمْسِ أَنْجَبَتْهُ. فَكَيْفَ كانَ ذَلِكَ؟

كانَ «إِياةُ» — فِيما تُحِدِّثُنا بِهِ الأَساطِيرُ الْهِنْدِيَّةُ — قَدْ تَزَوَّجَها سِرًّا، وَأَنْجَبَ مِنْها «كَرْنا» قَبْلَ أَنْ تَتَزَوَّجَ الشَّهِيدَ «بَندو» وَلَمْ يَكُنْ «إِياةُ» إِنْسانًا، بَلْ كانَ مَلَكًا كَرِيمًا: كانَ «إِياةُ» مَلَكَ الشَّمْسِ. وَسَأَلَتْهُ زَوْجُهُ ضارِعَةً — إِلَيْهِ — أَنْ يَهَبَ لِجَنِينِها ما يَكْفُلُ حِمايَتَهُ مِنْ الإِنْسِ فَما كانَ أَسْرَعَهُ إِلَى تَلْبِيَةِ رَجائِها. وَكَسا جِلْدَهُ دِرْعًا مَعْدَنِيَّةً رَقِيقَةً لا تَنْفُذُ فِيها السِّهامُ، وَلا تَقْطَعُها السُّيُوفُ، وَلا تُمَزِّقُها الرِّماحُ.

فَطَمِعَتْ «كَنْتِي» فِي مَزِيدٍ مِنْ هِباتِ «إِياةَ» لِجَنِينِها. فَوَهَبَ لَهُ حَلَقَتَيْنِ طَبِيعِيَّتَيْنِ نَبَتَتا فِي أُذُنَيْهِ، كَما تَنْبُتُ الأَصابِعُ فِي الرَّاحَتَيْنِ (الْيَدَيْنِ) وَلا سَبِيلَ إِلَى انْتِزاعِ هاتَيْنِ الْحَلَقَتَيْنِ — كَما لا سَبِيلَ إِلَى انْتِزاعِ أَصابِعِ الْيَدَيْنِ — إِلَّا بِقَطْعِهِما وَقَدِ اخْتَصَّ «إِياةُ» وَلَدَهُ «كَرْنا» بِمِنْحَتَيْهِ، لِتَكُونا واقِيَتَيْهِ مِنَ الرَّدَى، وَحامِيَتَيْهِ مِنَ الْعِدَى، وَلِتَكُونا آيَتَيْنِ (دَلِيلَيْنِ) عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَبْناءِ السَّماءِ، وَلَيْسَ مِنْ أَبْناءِ الأَناسِيِّ. فَلَمَّا وُلِدَ «كَرْنا» فَرِحَتْ أُمُّهُ بِما وَهَبَهُ «إِياةُ» لِوَلِيدِها مِنْ مِنْحَةٍ عُلْوِيَّةٍ وَلَكِنَّ فَرَحَها لَمْ يَطُلْ، فَلَمْ تَمُرَّ أَيَّامٌ قَلائِلُ حَتَّى فاجَأَتْها أَحْداثُ الزَّمَنِ بِما بَدَّلَ سُرُورَها حُزْنًا.

وَكادَتِ الْمُفاجَأَةُ تُذْهِلُها حِينَ قَدِمَ عَلَى دارِها رَسُولٌ يُفْضِي إِلَيْها بِرَغْبَةِ «إِياةَ» فِي أَنْ تُسْرِعَ — فِي بُكْرَةِ الْغَدِ — إِلَى ضِفَّةِ نَهْرِ «الْكَنْجِ» وَتَضَعُ وَلِيدَها فِي مائِهِ الطَّهُورِ، بَعْدَ أَنْ تُودِعَهُ سَلَّةً مِنَ الصَّفْصافِ، لِيحْمِلَهُ التَّيارُ إِلَى الْبُقْعَةِ الَّتِي اخْتارَها «إِياةُ» لِوَلِيدِهِ. وَلَمْ تَجْرُؤْ «كَنْتِي» عَلَى مُخالَفَةِ «إِياةَ». وَرَجَعَتْ فِي الْيَوْمِ التَّالِي إِلَى بَيْتِها مَحْزُونَةً — بَعْدَ أَنْ أَوْدَعَتْ وَلِيدَها مِياهَ النَّهْرِ — وَهِيَ لا تَدْرِي إِلَى أَيِّ مَكانٍ يَنْتَهِي بِهِ التَّيَّارُ. وَحَمَلَتِ الأَمْواجُ وَلِيدَها مَسافَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ أَسَلَمْتْهُ إِلَى السَّاحِلِ آمِنًا، حَيْثُ يُقِيمُ الْحُوذِيُّ الْكَرِيمُ وَزَوْجُهُ الْحَنُونُ. فَتَبَنَّياهُ (اتَّخَذاهُ لَهُما وَلَدًا) وَبَذَلا جُهْدَيْهِما فِي رِعايَتِهِ، وَلَمْ يُقَصِّرا فِي الْعِنايَةِ بِهِ وَتَهْذِيبِهِ، حَتَّى بَلَغَ سِنَّ النُّضْجِ، فَتَرَكَ دارَهُما الصَّغِيرَةَ، وانْطَلَقَ إِلَى الْغابَةِ، يُؤْثِرُها عَلَى سُكْنَى الْمُدُنِ، مُسْتَهْدِيًا فِي طَرِيقِهِ بِغَرِيزَتِهِ الْعُلْوِيَّةِ. وَلَمْ تَلْبَثِ الْمُصادَفَةُ أَنْ



جَمَعَتْهُ بِمُعَلِّمِ الرِّمايَةِ «دُرُونا» وَهُوَ يُدَرِّبُ حَفَدَةَ «بِهِشْما». وَشاءَ الْقَدَرُ الإِلَهِيُّ — الَّذِي لا حِيلَةَ لأَحَدٍ فِي دَفْعِ خَيْرِهِ وَلا أَذاهُ — أَنْ يَتَعادَى الأَخَوانِ، فَيُصْبِحَ «كَرْنا» وَ«أَرْجُونا» — فِي عالَمِنا الأَرْضِيِّ — عَدُوَّيْنِ يَحْتَرِبانِ وَيَصْطَرِعانِ. كَما جَرَتِ الأَقْضِيَةُ أَنْ يَنْتَصِرَ لِلأَخَوَيْنِ الْمُتَعادِيَيْنِ مَلَكانِ كَرِيمانِ؛ فَيَتَحَيَّزَ «إِياةُ»: مَلَكُ النُّورِ لِوَلَدِهِ «كَرْنا»، وَيَتَحَيَّزَ «إِندِرا»: مَلَكُ الْقُوَّةِ، لِمُناصَرِةِ صَفِيِّهِ «أَرْجُونا». وَكانَ أَوَّلَ ما اتَّجَهَ إِلَيْهِ «إِندِرا» أَنْ يَبْدَأَ بِتَجْرِيدِ «كَرْنا» مِنْ مَزِيَّتَيْهِ: دِرْعِهِ وَحَلَقَتَيْ أُذُنَيْهِ، لِيَضْمَنَ الْفَوْزَ لِمُنافِسِهِ «أَرْجُونا». وَفِيها — كَما عَلِمْتَ — سِرُّ حِمايَتِهِ، وَمَصْدَرُ قُوَّتِهِ، وَلَنْ يَتِمَّ لِمُنافِسِهِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ



إِلَّا بِانْتِزاعِها مِنْهُ. وَذَهَبَ «إندِرا» فِي بُكْرَةِ الْغَدِ إِلَى «كَرْنا» وَهُوَ يُصَلِّي عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ، بَعْدَ أَنْ اغْتَسَلَ بِمائِهِ الطَّهُورِ. فاقْتَرَبَ مِنْهُ «إندِرا» مُسْتَخْفِيًا فِي زِيِّ ناسِكٍ بَرْهَمِيٍّ، وَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ سَماحَةِ «كَرْنا» وَكَرَمِهِ أَنَّهُ لا يَرُدُّ لِسائِلٍ طَلَبًا. وابْتَدَرَهُ «إندِرا» قائِلًا: «مِنْحَةً يا سَيِّدِي، مِنْحَةً أَسْتَوْهِبُكَ إِيَّاها.» فَأَجابَهُ «كَرْنا»: «لَكَ ما تُرِيدُ يا سَيِّدِي.» فَقالَ «إندِرا»: «دِرْعُكَ وَحَلَقَتا أُذُنَيْكَ هِيَ كُلُّ مَطْلَبِي إِلَيْكَ.» فَأَجابَهُ «كَرْنا»: «لَوْ قَدَرْتُ عَلَى ذَلِكَ لَما تَأَخَّرْتُ فَإِنَّ هاتَيْنِ الْحَلَقَتَيْنِ نَشَأَتا فِي أُذُنَيَّ كَما نَشَأَتِ الأَصابِعُ فِي يَدَيَّ، وَلا سَبِيلَ إِلَى



انْتزاعِهِما مِنْهُما إِلَّا إِذا قَطَعَتَهُما مِنْ جِسْمِي. وَقَدْ أَجَبْتُكَ إِلَى طِلْبَتِكَ، فاصْنَعَ ما بَدا لَكَ. وَلْيَشْهَدْ سُكَّانُ السَّماءِ والأَرْضِ أَنَّ «كَرْنا» لا يُخْلِفُ وَعْدَهُ، وَلا يَنْقِضُ عَهْدَهُ.»

وَلَمَّا هَمَّ بِانْتِزاعِ الدِّرْعِ والْحَلَقَتَيْنِ أَلْهَمَ «إِياةُ» وَلَدَهُ «كَرْنا» بِحَقِيقَةِ زائِرِهِ الْعَظِيمِ، فَلَمْ يُضِعْ «كَرْنا» تِلْكَ الْفُرْصَةَ، واتَّجَهَ إِلَى «إِنْدِرا» قائِلًا: «ما دامَ سَيِّدِي «إِنْدِرا» هُوَ الَّذِي يَسْتَوْهِبُنِي دِرْعِي وَحَلَقَتَيْ أُذُنَيَّ، فَإِنِّي أَسْأَلُهُ أَنْ يَمْنَحَنِي — مُتَفَضِّلًا — عِوَضًا عَمَّا أَخَذَ.»

فَأَجابَهُ «إِنْدِرا»: «لَكَ ما تَشاءُ.» فَقالَ «كَرْنا»: «أَلْتَمِسُ مِنْ مَوْلايَ الْعَظِيمِ أَنْ يَمْنَحَنِي سَهْمًا إِذا لَمَسَ قَتَلَ.»

فَمَنَحَهُ «إِنْدِرا» ما طَلَبَ، وانْتَزَعَ مِنْهُ دِرْعَهُ وَحَلَقَتَيْ أُذُنَيْهِ.

ثُمَّ صَعِدَ الْمَلَكُ إِلَى السَّماءِ مَسْرُورًا بِما صَنَعَ.

(٢) نَصِيحَةٌ وَرَجاءٌ

وَقَدْ عَرَفَتْ «كَنْتِي» وَلَدَها «كَرْنا» مُنْذُ قَدِمَ عَلَى إِخْوَتِهِ واشْتَرَكَ مَعَهُمْ فِي التَّدَرُّبِ عَلَى الرِّمايَةِ. وَلَمْ تَكُفَّ عَنْ مُلاحَظَتِهِ وَتَتَبُّعِ أَخْبارِهِ، حَتَّى إِذا عَلِمَتْ بِتَفْرِيطِهِ فِيما وَهَبَهُ لَهُ

والِدُهُ «إِياةُ»، ساوَرَها الْقَلَقُ. واشْتَدَّ بِها الْحُزْنُ لِفُقْدانِهِ ما كانَ يُمَيِّزُهُ عَنْ أَبْناءِ الأَرْضِ وَيُلْحِقُهُ بِأَبْناءِ السَّماءِ. وَكَتَمَتِ الأُمُّ حُزْنَها، فَلَمْ تُفْضِ بِسِرِّها إِلَى أَحَدٍ، وَهِيَ عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ «إِياةَ» لَنْ يَتَخَلَّى عَنْ رِعايَةِ وَلَدِهِ وَحِمايَتِهِ، بِرَغْمِ تَفْرِيطِهِ فِي وَدِيعَتِهِ. وَكانَ — فِيما لَقِيَهُ «كَرْنا» مِنْ نَجاحٍ وَنَباهَةِ شَأْنٍ — عَزاءٌ لأُمِّهِ عَمَّا فَقَدَهُ مِنْ هِبَةٍ عُلْوِيَّةٍ وَمِيزَةٍ سَماوِيَّةٍ. وابْيَضَّ شَعْرُ «كَنْتِي» عَلَى مَرِّ السِّنِينَ، وَدَبَّ الْوَهَنُ إِلَى جِسْمِها، وَأَلَحَّ عَلَيْها السَّقَمُ وَأَضْناها. وَأَرَّقَ نَوْمَها ما مُنِيَ بِهِ أَبْناءُ الْعَمِّ مِنْ شِقاقٍ وَنِزاعٍ. فَلَمَّا خَرَجَ أَبْناؤُها مِنْ مَنْفاهُمْ أَيْقَنَتْ أَنْ ساعَةَ انْتِقامِهِمْ مِنْ أَبْناءِ عَمِّهِمْ قَدْ أَقْبَلَتْ. واشْتَدَّ انْزِعاجُها حِينَ عَلِمَتْ أَنَّ أَبْناءَ «الضَّرِيرِ» قَدْ عَهِدُوا إِلَى وَلَدِها «كَرْنا» بِقِيادَةِ جَيْشِهِمْ. فَهالَها الأَمْرُ، وَعَزَّ عَلَيْها الصَّبْرُ، فَأَسْرَعَتْ إِلَى وَلَدِها مُتَسَلِّلَةً لِتُفْضِيَ إِلَيْهِ بِسِرِّها وَتُخْبِرَهُ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِها، لَعَلَّها تَكُفُّهُ عَنْ مُحارَبَةِ إِخْوَتِهِ، وَتَقْوِيضِ دَعائِمِ أُسْرَتِهِ، فَوَجَدَتْهُ مَشْغُولًا بِالصَّلاةِ فَصَبَرَتْ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَمَّها وَما إِنْ رَآها حَتَّى ابْتَدَرَها بِالتَّحِيَّةِ وَهَشَّ لِلِقائِها شاكِرًا لَها ما أَوْلَتْهُ مِنْ تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ بِحُضُورِها إِلَيْهِ. ثُمَّ سَأَلَها مُتَلَطِّفًا عَمَّا أَقْدَمَها عَلَيْهِ بِرَغْمِ ما تَعْلَمُ مِنْ صَداقَتِهِ لِعَمِيدِ أُسْرَةِ «الضَّرِيرِ»، الَّذِي لا يَنْعَمُ بِعَطْفِها. فَأَقْبَلَتِ الْمَلِكَةُ عَلَيْهِ مُتَوَدِّدَةً إِلَيْهِ، مُمْسِكَةً بِكِلْتا يَدَيْهِ، تَهُزُّهُما فِي لَهْفَةٍ واشْتِياقٍ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ بِدِخْلَتِها فِي حُنُوٍّ وَإِشْفاقٍ، وَكانَ صَوْتُها يَتَهَدَّجُ، وَيَتَعَثَّرُ الْكَلامُ فِي حَلْقِها وَيَتَحَشْرَجُ، لِفَرْطِ تَأَثُّرِها بِما تَسْتَعِيدُهُ مِنْ ذِكْرَياتٍ أَلِيماتٍ، وَما تَقُصُّهُ عَلَى وَلَدِها مِنْ مَآسٍ فاجِعاتٍ. ثُمَّ خَتَمَتْ حَدِيثَها قائِلَةً: «فَأَنا أُمُّكَ كَما تَرَى. وَلَمْ يَكُنِ الْحُوذِيُّ أَباكَ كَما تَوَهَّمْتَ، بَلْ أَنْتَ ابْنُ الشَّمْسِ: ذاتِ النُّورِ والْحَرارَةِ والدِّفْءِ» وَأَرادَتْ «كَنْتِي» أَنْ تُتِمَّ حَدِيثَها، فَقاطَعَها «كَرْنا» وَلَدُها قائِلًا: «لَمْ يَغِبْ عَنِّي شَيْءٌ مِمَّا حَدَّثْتِنِي بِهِ يا أُمَّاهُ. فَقَدْ عَرَفَ «كَرْنا» أُمَّهُ وَأَباهُ، مِمَّا شَهِدَ — مُنْذُ سَنَواتٍ — فِي مَنامِهِ، وَسَمِعَهِ فِي رُؤْياهُ (حُلْمِهِ) فَخَبِّرِي وَلَدَكِ بِما تُرِيدِينَ، وَمُرِيهِ بِما تَشائِينَ، فَلَنْ يُخالِفَ «كَرْنا» لأُمِّهِ رَأْيًا، وَلَنْ يَعْصِيَ لَها أَمْرًا.» فَقالَتْ «كَنْتِي»: «كُلُّ ما أُرِيدُهُ مِنْكَ أَنْ تَتَخَلَّى عَنْ صَداقَةِ أَبْناءِ «الضَّرِيرِ» وَتَكُفَّ عَنْ مُناصَرَتِهِمْ. فَإِذا لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنَ الْقِتالِ بُدٌّ، فَحَذارِ أَنْ تَعُقَّ أُسْرَتَكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحارِبَ إِخْوَتَكَ، فَهُمْ أَجْدَرُ بِمُناصَرَتِكَ، وَأَحَقُّ بِمُعاوَنَتِكَ.» وَما إِنْ بَلَغَتْ «كَنْتِي» هَذا الْمَدَى مِنْ حَدِيثِها لِوَلَدِها حَتَّى ظَهَرَتْ أَمامَها شُعاعَةٌ جَمِيلَةٌ — مِنْ ضِياءِ الشَّمْسِ — لَمْ تَلْبَثْ

أَنْ تَمَثَّلَتْ لَهُما بَشَرًا سَوِيًّا، تَحُوطُ مُحَيَّاهُ (وَجْهَهُ) الْمُشْرِقَ هالَةٌ مِنَ النُّورِ، مُعَلَّقَةٌ فِي أَطْرافِها حَلَقاتٌ ذَهَبِيَّةٌ. واسْتَمَعَ «كَرْنا» إِلَى صَوْتِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «ما أَجْدَرَكَ — يا وَلَدِي — أَنْ تَسْتَعِينَ صادِقَ عَزْمِكَ، وَتَسْتَلْهِمَ ثاقِبَ فَهْمِكَ، مُسْتَرْشِدًا بِنَصِيحَةِ أُمِّكَ.»

وَكانَ «كَرْنا» يَرْنُو بِبَصَرِهِ إِلَى السَّماءِ، مُتَّجِهًا إِلَى صُورَةِ «إِياةَ»، وَيَقُولُ لَهُ فِي خَجَلٍ واسْتِحْياءٍ: «ما كانَ لِمِثْلِي أَنْ يَعْصِيَ لِوالِدَيْهِ أَمْرًا. وَلَكِنَّ قَضاءَ اللهِ قَدْ رَبَطَ بَيْنِي وَبَيْنَ «دُرْيُدْهانا» — كَما تَعْلَمانِ — بِرِباطٍ مِنَ الصَّداقَةِ لا انْفِصامَ لَهُ. وَقَدْ أَقْسَمْنا — مُنْذُ تَعارَفْنا — عَلَى الْمَوَدَّةِ، وَحَلَفْنا عَلَى الْوَفاءِ، فَصَدَقُونِي وَعْدَهُمْ، وَما كُنْتُ لأَتَنَكَّرَ لِوُدِّهِمْ، وَأَحْنَثَ فِي يَمِينِي لَهُمْ.» ثُمَّ أَطْرَقَ بِرَأْسِهِ بُرْهَةً، واسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قائِلًا: «أُقْسِمُ لَكُما — بِما أَسْدَيْتُماهُ إِلَيَّ مِنْ كَرِيمِ عَطْفِكُما، وَبِما طَوَّقْتُما بِهِ عُنْقِي مِنْ سابِغِ فَضْلِكُما — إِنِّي مُلَبٍّ لإِشارَتِكُما، مُسْتَجِيبٌ لأَمْرِكُما، وَلَنْ تَمْتَدَّ يَدِي بِالأَذَى لأَحَدٍ مِنْ إِخْوَتِي، لا أَسْتَثْنِي مِنْهُمْ غَيْرَ «أَرْجُونا»، وَسَأَقْتَصِرُ عَلَى صِراعِهِ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَفَرْدًا لِفَرْدٍ.» وَهَكَذا لَمْ يَظْفَرْ أَبَواهُ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذا الْوَعْدِ، فَقَنِعا بِهِ عَلَى مَضَضٍ، وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ. وَغابَتْ صُورَةُ «إِياةَ» عَنْ أَنْظارِهِما، واسْتَوْلَى الْحُزْنُ عَلَى «كَنْتِي». وَلَمْ يَكُنْ لَها حِيلَةٌ فِي رَدِّ عادِيَةِ الْقَضاءِ، وَتَجْنِيبِ وَلَدَيْها ما يَسْتَقْبِلانِهِ مِنَ الْبَلاءِ. وَجاءَ يَوْمُ الصِّدامِ، فَقُرِعَتْ طُبُولُ الْحَرْبِ وَدَوَّتْ أَبْواقُها، والْتَقَى الْجَيْشانِ عَلَى مَسافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ مِنْ حاضِرَةِ الْبِلادِ. وَدارَتْ رَحَى الْحَرْبِ، فِي غَيْرِ هَوادَةٍ وَلا رَحْمَةٍ، والْتَحَمَ الْجُنُودُ، واصْطَدَمَتِ الْمَرْكَباتُ الْحَرْبِيَّةُ بَعْضُها بِبَعْضٍ، حَتَّى إِذا حُمِيَ وَطِيسُ الْحَرْبِ والْتَهَبَ أُتُّونُها وَسُعِّرَتْ جَحِيمُها، قَفَزَ سائِقُوها إِلَى أَعْدائِهِمْ مُتَوَثِّبِينَ، مُسْتَمِيتِينَ فِي قِتالِهِمْ مُسْتَقْتِلِينَ، يَدْفَعُهُمْ جُنُونُ الْحِقْدِ وَتُلْهِبُهُمْ نارُ الانْتِقامِ واشْتَبَكَتِ السُّيُوفُ، واشْتَجَرَتِ الرِّماحُ، وَتَرامَتِ السِّهامُ كالْمَطَرِ، وَمُزِّقَتِ الأَعْلامُ، وَتَقَصَّفَتِ الْحِرابُ، واشْتَدَتْ ثائِرَةُ الْفِيَلَةِ وَهِياجُها، فَعَصَفَتْ بِكُلِّ ما لَقِيَتْهُ فِي طَرِيقِها — مِنْ جُنُودٍ وَجِيادٍ وَمَرْكَباتٍ — تَسْحَقُهُ بِأَقْدامِها الْغِلاظِ الثَّقِيلاتِ فَإِذا انْقَضَى النَّهارُ وَحَلَّ الظَّلامُ عادَ الْمُحْتَرِبُونَ إِلَى فِراشِهِمْ مَكْدُودِينَ، خائِرِي الْقُوى مَجْهُودِينَ. وَتَهْدَأُ الْجَلَبَةُ وَيَسْكُنُ الصَّخَبُ، وَيُطِلُّ عَلَيْهِمُ الْقَمَرُ والنُّجُومُ وَهُمْ مُسْتَسْلِمُونَ لِنَوْمِهِمْ كَما يَسْتَسْلِمُ الأَطْفالُ الصِّغارُ.

فَإِذا لاحَ فَجْرُ الْيَوْمِ التَّالِي انْدَفَعَ الْمُحارِبُونَ يَسَتَأْنِفُونَ الْمَعْرَكَةَ مِنْ جَدِيدٍ بِعَزِيمَةٍ تَفُلُّ الْحَدِيدَ. وَمَرَّتْ بِالْجَيْشَيْنِ الْمُتَقاتِلَيْنِ سِتَّةَ عَشَرَ مِنَ الأَيَّامِ دُونَ أَنْ تُدْنِيَ الأَمَلَ فِي

انْتِصارِ أَحَدِهِما عَلَى صاحِبِهِ، وَرُجْحانِ كِفَّتِهِ عَلَى مُحارِبِهِ. فَدَبَّ الْيَأْسُ إِلَى الْقُلُوبِ، واسْتَوَلَى الْجَزَعُ والْحَيْرَةُ عَلَى النُّفُوسِ.

(٣) صِراعُ الأَخَوَيْنِ

واسْتَيْقَظَ «كَرْنا» فِي فَجْرِ الْيَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ، وانْطَلَقَ إِلَى «دُرْيُدْهانا» يَقُصُّ عَلَيْهِ ما شَهِدَهُ فِي الْمَنامِ لَيْلَةَ أَمْس، مِنْ عَجِيبِ الرُّؤَى وَغَرِيبِ الأَحْلامِ. وَيُؤَكِّدُ لَهُ أَنَّهُ قَدِ اقْتَنَعَ أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَنْ تَدُومَ أَكْثَرَ مِنْ هَذا النَّهارِ، وَلَنْ يَسْدُلَ اللَّيْلُ أَسْتارَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْفُذَ قَضاءُ اللهِ وَيَنْتَهِيَ صِراعُ الأَخَوَيْنِ إِلَى غايَتِهِ، فَيَبْقَى أَحَدُهُما فِي الْعالَمِ الأَرْضِيِّ وَيَصْعَدَ الآخَرُ إِلَى الْعالَمِ السَّماوِيِّ. وَنَشِبَتِ الْمَعْرَكَةُ، فَتَسَلَّلَ «كَرْنا» إِلَى سُرادِقِهِ (خَيْمَتِهِ) وَتَفَقَّدَ سَهْمَهُ الْمَسْحُورَ الَّذِي أَهْداهُ إِلَيْهِ «إِنْدِرا» فِيما سَلَفَ مِنَ الأَيَّامِ، وَأَوْدَعَهُ جَعْبَتَهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ يَبْحَثُ عَنْ «أَرْجُونا» حَتَّى الْتَقاهُ وَجْهًا لِوَجْهٍ. وَنَشِبَ بَيْنَ الأَخَوَيْنِ صِراعٌ عَنِيفٌ، لَمْ تَشْهَدْ لَهُ بِلادُ الْهِنْدِ مَثِيلًا. وَهالَ الْجَيْشَيْنِ ما تَجَلَّى فِي صِراعِهِما مِنْ ضُرُوبِ الْمُفاجَآتِ. فَكَفُّوا عَنِ الْقِتالِ مَأْخُوذِينَ بِشَجاعَتِهِما وَبَراعَتِهِما مُتَتَبِّعِينَ صِيالَهُما وَهَجَماتِهِما.

وَتَحَدَّثَ بَعْضُ رُواةِ الأُسْطُورَةِ — مِمَّنْ شَهِدُوا صِراعَ الأَخَوَيْنِ — فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ رَأَوْا — فِيما رَأَوْا — أَطْيافًا مِن اللَّهَبِ تَتَخَلَّلُها أَشْباحٌ مِنَ النُّورِ، تَرِفُّ — بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ — فِي أَجْوازِ الْفَضاءِ، مُحَلِّقَةً فِي الْهَواءِ، هابِطَةً مِنَ السَّماءِ، وَهِيَ لا تَكُفُّ عَنْ صَدِّ نِبالِهِما وَتَعْوِيقِ سِهامِهِما — فِي يَقَظَةٍ وانْتِباهٍ — حَتَّى تَتَحَوَّلَ فِي اتِّجاهٍ غَيْرِ ما أَراداهُ، لِتُعَرْقِلَ ما قَصَداهُ. وَكانَتْ سِهامُ «أَرْجُونا» تَنْطَلِقُ طائِرَةً فِي الْجَوِّ كَأَنَّها — لِغزارَتِها — أَسْرابُ الطَّيْرِ، وَكُلَّما أَوْشَكَ السَّهْمُ أَنْ يُصِيبَ مَرْماهُ، فَوَّتَ عَلَيْهِ «كَرْنا» غَرَضَهُ، وَحَنَى رَأْسَهُ، فَمَرَّ السَّهْمُ بِسَلامٍ. وَأَعَدَّ «كَرْنا» فِي هَذِهِ الأَثْناءِ سَهْمًا نافِذًا سَدَّدَهُ إِلَى قَلْبِ «أَرْجُونا» فَسَمِعَ الْجَيْشانِ زَفِيفَهُ وَهُوَ يَشُقُّ الْهَواءَ فَحادَ «أَرْجُونا» عَنْ طَرِيقِ السَّهْمِ، وَأَرْسَل إِلَى «كَرْنا» سَهْمًا كادَ يَصْرَعُهُ وَيُرْدِيهِ، لَوْلا تَفادِيهِ. وَكانَ الْبَطَلانِ قَدْ بَلَغا فِي صِراعِهِما الْمَدَى، وانْتَهَيا إِلَى آخِرِ الشَّوْطِ، فانْدَفَعا فِي حَماسَةٍ مُلْتَهِبَةٍ يَترامَيانِ بِالسَّهْمِ وَيَتَراشَقانِ بِالنِّبالِ، فَتَصْطَدِمُ النِّبالُ بِالنِّبالِ، وَتَتَكَسَّرُ النِّصالُ عَلَى النِّصالِ.

وَما زالَ الْفارِسانِ يَصْطَرِعانِ دُونَ أَنْ يُصِيبَ أَحَدُهُما مِنَ الآخَرِ مَقْتَلًا. وَكِلاهُما يَرْتَقِبُ أَنْ يَتَسَرَّبَ إِلَى صاحِبِهِ السَّأَمُ وَالْمَلَلُ، حَتَّى إِذا أَشْرَفَت شَمْسُ النَّهارِ عَلَى الْغُرُوبِ، أَحَسَّ «كَرْنا» أَنَّ الظَّلامَ يُخَيِّمُ عَلَى عَيْنَيْهِ والرِّعْشَةَ تَنْسابُ إِلَى يَدَيْهِ. فَأَيْقَنَ أَنَّ الْغَلَبَةَ لَنْ تَتِمَّ لَهُ عَلَى مُنافِسِهِ إِلَّا إِذا اسْتَعانَ بِسَهْمِ «إِنْدِرا». فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي إِخْراجِ السَّهْمِ الْمَسْحُورِ مِنْ جَعْبَتِهِ وَتَسْدِيدِهِ إِلَى قَلْبِ «أَرْجُونا». فَكادَ السَّهْمُ يُصْمِيهِ، لَوْ لَمْ يُسْرِعْ «إِنْدِرا» السَّاهِرُ عَلَى حِمايَةِ «أَرْجُونا»، إِلَى مَرْكَبَتِهِ، فَيَضْغَطَ عَجَلَتَها بِقَدَمَيْهِ وَهُوَ مُسْتَخْفٍ عَنِ الأَبْصارِ، فَتَغُوصَ الْمَرْكَبَةُ فِي الأَرْضِ عِدَّةَ أَشْبارٍ، وَيَطِيشُ السَّهْمُ بَعْدَ أَنْ يُطِيحَ بِتاجِ الأَمِيرِ، دُونَ أَنْ يُصِيبَ جِسْمَهُ بِأَذًى. وَثَمَّ يَعُودُ السَّهْمُ الْمَسْحُورُ إِلَى يَدِ مُرْسِلِهِ — مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ — بَعْدَ أَنْ أَخْطَأَ الْهَدَفَ، وَيَهْمِسُ فِي أُذُنِ «كَرْنا» قائِلًا: «ارْمِهِ بِي ثانِيَةً، فَلَنْ يُفْلِتَ مِنِّي فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ. ارْمِهِ بِي مَرَّةً أُخْرَى، فَإِنِّي مُلاحِقُهُ أَنَّى ذَهَبَ، وَصارِعُهُ حَيْثُما اتَّجَهَ.» وَهَكَذا سَنَحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ لِلْخَلاصِ مِنْ «أَرْجُونا» وَلَكِنَّ «كَرْنا» الشُّجاعَ النَّبِيلَ أَبَتْ لَهُ مُرُوءَتُهُ، وَنُبْلُ قَلْبِهِ وَطَهارَتُهُ، أَنْ يَعْمِدَ إِلَى قُوَّةٍ غَيْرِ قُوَّتِهِ، وَيَسْتَعِينَ السِّحْرَ عَلَى إِنْجازِ طِلْبَتِهِ. أَبَى مُتَعَفِّفًا أَنْ يُطْلِقَ السَّهْمَ مَرَّتَيْنِ. وَلَمْ يَكُنْ «أَرْجُونا» عارِفًا بِما يَفِيضُ بِهِ قَلْبُ أَخِيهِ مِنْ طَهارَةٍ وَنُبْلٍ وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ شَرَفَ نَفْسِهِ وَكَرَمَ عُنْصُرِهِ، قَدْ أَبَيا عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَصِرَ بِسِلاحٍ لا فَضْلَ لَهُ فِيهِ.



وَلَوْ عَلِمَ «أَرْجُونا» ذَلِكَ لَكَفَّ عَنِ الصِّراعِ. وَلَكِنْ هَكَذا شاءَتِ الأَقْدارُ وَجَرَتِ الأَقْضِيَةُ، فَحَجَبَتْ عَنْ «أَرْجُونا» ما تَزْخَرُ بِهِ نَفْسُ أَخِيهِ مِنْ طَهارَةٍ وَشَرَفٍ. فانْتَهَزَ

فُرْصَةَ اشْتِغالِ «كَرْنا» بِمُناجاةِ نَفْسِهِ، وَسَدَّدَ إِلَيْهِ سَهْمًا قاتِلًا أَطاحَ بِرَأْسِهِ، وَفَصَلَهُ مِنْ جَسَدِهِ. فَهَوَى الْفارِسُ النَّبِيلُ إِلَى الأَرْضِ صَرِيعًا مُجَدَّلًا، وَصَعِدَ رُوحُهُ إِلَى السَّماءِ، بَيْنَ الأَسَفِ والْبُكاءِ. وَتَوارَى كَوْكَبُ الشَّمْسِ خَلْفَ ما تَجَمَّعَ مِنْ الْغُيُومِ والسُّحُبِ. وَكَفَّ ماءُ النَّهْرِ عَنْ خَرِيرِهِ، وَذابَ الثَّلْجُ عَلَى قِمَمِ الْجِبالِ، وَتَوَقَّفَ الطَّيْرُ عَنْ غِنائِهِ، وَتَناوَحَتِ الرِّياحُ تُعْلِنُ فِي أَرْجاءِ الْهِنْدِ مَصْرَعَ فارِسِها الشُّجاعِ.

وَتَعالَى صُراخُ أَبْناءِ «الضَّرِيرِ» وَعَوِيلُهُمْ، وَدَبَّ الْفَزَعُ والرَّعْبُ إِلَى قُلُوبِهِمْ، فاضْطَرَبَتْ صُفُوفُهُمْ، فَكَرَّ عَلَيْهِمْ «أَرْجُونا» وَجَيْشُهُ كَرَّةً صادِقَةً انْخَلَعَتْ لَها قُلُوبُهُمْ، فَلاذَ الْجَيْشُ بِالْفِرارِ، بَعْدَ أَنْ هَلَكَ قادَتُهُمْ وَدالَتْ دَوْلَتُهُمْ.

(٤) خاتِمَةُ الْمَأْساةِ



وَعادَ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» إِلَى أَهْلِهِمْ فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ بِما ظَفِرُوا بِهِ مِنْ نَصْرٍ مُبِينٍ. وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ عَرَفُوا مِنْ عَمِّهِمْ «دَرَسْتَراسا» الضَّرِيرِ وَ«جِنْدَهارِي» زَوْجَتِهِ وَ«كَنْتِي» أُمِّهِمْ وَ«فِيدورا» خالِهِمْ، تَفْصِيلَ ما جَهِلُوهُ مِنْ قِصَّةِ أَخِيهِمْ؛ فَقَدْ عَجَزُوا عَنْ كِتْمانِ السِّرِّ، بَعْدَما فُوجِئُوا بِما أَسْفَرَتْ عَنْهُ الْمَأْساةُ الْفاجِعَةُ مِنْ فِقْدانِ زَهْرَةِ شَبابِ الْوَطَنِ وَحُماتِهِ، وَصَفْوَةِ أَعْيانِهِ وَسَراتِهِ. وَتَجَلَّى لِعَمِّهِمُ «الضَّرِيرِ» ما جَلَبَهُ الْحَسَدُ

وَالْجَورُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَوْلادِهِ وَعَلَى وَطَنِهِ مِنْ كَوارِثَ وَأَهْوالٍ، فالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ دامِعَ الْعَيْنِ مَحْزُونَ الْقَلْبِ، وَقالَ: «إِنَّها إِرادَةٌ عُلْوِيَّةٌ وَمَشِيئَةٌ سَماوِيَّةٌ جَرَى بِها الْقَدَرُ، وَهِيَ — كَما تَرَوْنَ — عِقابٌ رادِعٌ حَلَّ بِي وَبِأَبْنائِي جَزاءَ ما بَنَيْنا مِنْ عَداواتٍ، وَما أَسْلَفنا مِنْ جَورٍ وَإِساءاتٍ. وَلَمْ يَبْقَ لِي فِي الْحَياةِ — بَعْدَ الْيَوْمِ شَيْءٌ — أَحْرِصُ عَلَيْهِ غَيْرَ الانْصِرافِ إِلَى عِبادَةِ اللهِ، وَقَدْ أَزْمَعْتُ الذَّهابَ إِلَى شَطِّ «الْكَنْجِ» حَيْثُ أَقْضِي ما بَقِيَ مِنْ أَيَّامِيَ الْقَلِيلَةِ فِي النُّسْكِ والاسْتِغْفارِ، والتَّوْبَةِ مِمَّا أَسْلَفْتُ مِنْ ذُنُوبٍ كِبارٍ.» وَأَقَرَّتْهُ زَوْجُهُ «جُنْدُهارِي» عَلَى فِكْرَتِهِ، وَصَحِبَتْهُ إِلَى صَوْمَعَتِهِ، حَيْثُ تَعْبُدُ رَبَّها وَتَقْضِي إِلَى جِوارِ زَوْجِها ما بَقِيَ مِنْ عُمْرِها. وَلَمْ يَدَّخِرْ أَبْناءُ «الشَّهِيدِ» جُهْدًا فِي تَعْزِيَتِهِما، وَعَقَدُوا الْعَزْمَ عَلَى مُصاحَبَتِهِما إِلَى مَقَرِّهِما، حَيْثُ أَقامُوا شَهْرًا كامِلًا فِي صَوْمَعَتِهِما، يَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ. ثُمَّ وَدَّعُوهُما، بَعْدَ انْقِضاءِ الشَّهْرِ. عائِدِينَ إِلَى وَطَنِهِمْ، حَيْثُ أَقامُوا الْعَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ، وَنَشَرُوا بَيْنَهُمْ رُوحَ الصَّفْحِ والرَّحْمَةِ والإِحْسانِ، وَوَقَفُوا عَلَى الإِصْلاحِ جُهُودَهُمْ، فَعَلا شَأْنُهُمْ، وَثَبَتَ مُلْكُهُمْ، وَعَزَّ سُلْطانُهُمْ، وَكَثُرَ أَنْصارُهُمْ، وَخَلا الْجَوُّ لَهُمْ، بَعْدَ أَنِ انْدَحَرَ حُسَّادُهُمْ وَهَلَكَ أَعْداؤُهُمْ. وَصَحِبَتْهُمْ عِنايَةُ اللهِ وَتَوْفِيقُه، فَدانَتْ لَهُمُ الأَيَّامُ، وَبَلَغُوا مِنْ دَهْرِهِمُ الْمَرامَ، وَعاشُوا بَيْنَ مُلُوكِ الْهِنْدِ، مُتَفَرِّدِينَ بِالثَّناءِ والْحَمْدِ، مَوْصُوفِينَ بِالْبُطُولَةِ والْمَجْدِ. وَأَصْبَحُوا بَعْدَ مَوْتِهِمْ مَضْرِبَ الأَمْثالِ — عَلَى كَرِّ الْعُصُورِ وَتَوالِي الأَجْيالِ — فِي الإِقْدامِ والشَّجاعَةِ، والتَّفَوُّقِ والْبَراعَةِ: جُنُودًا مُحارِبِينَ، وَهُداةً مُرْشِدِينَ، وَحُكَّامًا مُصْلِحِينَ..